

المعز بن باديس ـ عمران القيروان ـ حياة ابن رشيق

وترجمة ابن شرف القيرواني وابنه جعفر

صنع

أبي البركات عبد العزيز الميمني السلفي الراجكوتي

الاستاذ بالكلية الشرقية في لاهور (عاصمة بنجاب ـ الهند)

وهي محاضرة ألقاها باللغة الاوردية في جمعية الشرقيين بلاهور

ونقلها بقلمه الى اللغة العربية لتكون كمقدمة لكتابه المسمى

« النتف » من شعري ابن رشيق وابن شرف

القاهرة ١٣٤٣

عنيت بنشره

المطبعة السلفية ـ ومكتبتها

المعزّ بن باديس ـ عُمران القَيْرَوان ـ حياةُ ابن رَشيق

وترجمة ابن شَرَف القيرواني ، وابنه جعفر

وضعُ

الاستاذ بالكلية الشرقية في [illegible])

وهي محاضرة [illegible] الادبية بجمعية الشرقيين بلاهور

[illegible] إلى اللغة العربية لتكون كمقدمة لكتابه المسمى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على غامر آلائه . وأكرم صلواته وسلامه
على خاتم أنبيائه وأصفيائه ، من خاص عباده وأوليائه

وبعد فهذه مقالة كتبت [illegible] بحضرة جمع من
العلماء في جمعية الشرقيين بلاهور في مدرس سنة ١٩٢٣ م
بالاردية ، لسان الأمة المسلمة في الهند . ثم إني رأيت
أن أعربها وأجعلها كمقدمة على تأليفي :

النتف . من [illegible]

وأما أصله [illegible]
كر الهند ، أشهر مجلات [illegible]
مايو سنة ١٩٢٤ [illegible]

[illegible]

البلاد العربية ، فهم غرضي من إنشائها في العربية ، وأنا بين أهلي ووطني كأجنبيّ عنهم

نَزَلوا بمكّةَ في قبائل نَوْفَلٍ ... ونزلتُ بالبَيْداءِ أبعدَ مَنزِلِ

كأنّي لم أكن فيهم وَسِيطاً ... ولم تكُ نسبتي في آل عمرِو

وأنا

عبد العزيز الميمَني الراجكوتي السَلَفيّ

لطف الله به

الأستاذ بالكليّة الشرقية في لاهور عاصمة بنجاب (الهند)

صدر بدار راجكوت كاتهيادار (الهند) يوم الخميس (عرفة) من سنة ١٣٤٢ هـ

﴿ أوّليّة المُعِزّ ﴾

لمّا فتح جوهر قائد المعزّ الفاطمى مصر فى بدء القرن الرابع الهجرىّ دعا مولاه المعزّ ليتمكن على سرير مصر والشام. ففكّر المعزّ فيمن يولّيه بعده على إفريقية فلم ير له كفؤاً إلاّ بُلُكّين بن زِيرِى بن مَنَاد [1] الصِنْهاجىّ، وصنهاجة كانوا أعوان الفاطميّين. فاستخلفهُ ودعاه أبا الفتوح سيفَ الدولة يوسفَ. ثم توالى منصور وباديس الى أن تُوفِّى هذا الأخير سنة ٤٠٦ هـ فجْأَةً وهو فى معسكره بين أصحابه. فبُويع المعزّ ابنه وهو إذ ذاك [2] ابن ثمانية أعوام وقيل وستة أشهر وقيل بل ابن احدى عشرة سنةً

﴿ المُعِزّ بن بادِيسَ ﴾

لم يُعرف له غير هذا الاسم. ولد سنة ٣٩٨ هـ بالمنصورية (صَبْرَةَ) وملك بعد وفاة أبيه بالمحمدية (مَسِيلة). فقام بعبء الملك أحسن قيام. وأفرغه فى قالب النظام. وأراح نفسه من مدّعين الملك من عشيرته الأدنَيْن. لأن [illegible] البربر [illegible] نَحْلَتِه [illegible] عدَّتهم بأسلافه. فكانت تخرج عليه وتنتهز الفُرَصَ. فثارت

(١) كذا فى صبح الأعشى ٥ : ١٢٤ وفى غيره [illegible]

(٢) راجع [illegible]

طوائف زَناتة سنة ٤١١ و ٤١٥ و ٤٢٠ و ٤٢٧ و ٤٢٨ و ٤٢٩ ﻫ الى غيرها وآل حماد سنة ٤٣٢ ﻫ ولكن الحظ كان قرين المعز فهزمهم وأخذ ثورتهم وكفّ من غَرْبهم فهابته الطوائف . وتزلّفت اليه بالتحائف . ولم يبق بأمّهات بلاد إفريقيّة من يساجله فى الرياسة . قال ابن خَلْدُون (٦ : ١٥٩) :

« وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب فى جميعها كما هو مذكور »

وكان [1] رقيقاً رفيقاً . سَمْحاً جواداً محبّاً للعلم وحامليه . متجنّباً لسفك الدماء . حليماً حسن الصحبة والعشرة . ليّن الجانب للأودّاء . خَشِنَه للأعداء . ملك من بَرقة الى فس وسكّن الثوّار بإيناس منه وإبساس . وكان يخضع لأحكام الشرع كما يؤخذ من عدّة تراجم فى معالم الايمان (٣ : ١٧٦ و ٢٠٩) ولم يكن من الفنون اللطيفة خِلْواً وله شعر وإن لم نَقِفْ عليه (الوفيات ٢ : ١٠٥)

ونقل صاحب البدائع عن أبكار الأفكار لابن شرف أنه اقترح على شاعرَىْ حضرته أن يصفا شعَراً لطيفاً على أسْوُق بعض إمائه فكان مما قاله ابن رشيق :

(١) ابن خلدون ٦ : ١٥٨ والكامل ١٠ : ٦ والوفيات ٢ : ١٠٥

يعيبون بلقيسيةً أن راوا بها
كما قد رأى من تلك من نَصَب الصَّرْحا

فانتقد المعز عليه بقوله «أوجدتَ لخصمها حُجَّةً بأن بعض الناس عابَه» وهذا النقد الصائبُ دليل على ذهنه الثاقب

وكان المعزّ واسطةَ عِقد آل زِيرى بل ملوكِ إفريقيَّة وبيتَ قصيدهم

قال ابن خَلْدون (٦ : ١٥٨) :

«كان أضخَم مَلِكٍ عُرف للبربر بإفريقيَّة وأترفَه وأبذخَه»

واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلاّ بباب الصاحب اسماعيلَ بن عبّاد وكانوا يُنيفون على مائة شاعر على ما زعم صاحب البساط (ص ٥١) وذكر أكثرَهم ابنُ رُشيق في (أنموذج الزمن في شعراء القيروان) وسيمرّ بك سَرْدُ أسماء من عثرنا على ترجمته منهم

وهاك بعضَ أمثلة تبين سخاءه وبُعد صيته . قال ابن الأثير[1] :

وهب مرة مائة ألف دينار للمستنصر الزناتي وكان عنده وقد جاءه هذا المال فاستكثره فأمر به فأُفرغ بين يديه ثم وهبه له . فقيل

(١) ١٠ : ٦

له لِمَ أمرتَ بإخراجه من أوعيته . قال لئلا يقال لو رآه ماسمحت نفسه به

وقال ابن خلدون :

نقل ابن الرقيق من أحوالهم فى الولائم والهدايا والخبائز [1] والأعطيات ما يشهد بذلك . مثل ماذكر أن عطية صندل [2] عامل باغانة مائة حمل من المال . وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان العودَ الهندى بمسامير الذهب . وأن باديس أعطى فلفول بن مسعود الزناتى ثلثين حملاً من المال وثمانين تختاً . وأن أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صَفاقُسَ كان خمسين الف قفيز

وقال أيضاً قبله بقليل :

ووصل زاوى بن زيرى (صاحب غرناطة) من الاندلس سنة عشر وأربعمائة كما ذكرناه فى خبره فتلقّاه المعز أعظم لقاء وسلّم عليه راجلاً وفُرشت القصور لنُزُله ووَصَلَه بأعظم الصلات وأرفعها

وقال ابن خلكان [3] :

وكان الحاكم صاحب مصر قد لقّبه شرف الدولة وسير له تشريفاً وسِجلاً يتضمن اللقب المذكور وذلك فى ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة

(١) كذا وبنسخة ابن خلدون (٦ : ١٥٨) مصحفة ولعل صوابه « الجنائز » (٢) كذا وانظر (٣) ٢ ١٠٤ والبساط ٢ :٤

وتزلفت له الملوك بالهدايا والتُحَف ابتغاء مهادنته . فمن ذلك هدية أتت من مصر على ما قال ابن رشيق [١] أو من السودان على ما قال صاحب البساط [٢] أو هذه غير تلك وفيها زَرافةٌ وصفها ابن رشيق فى همزيّة (وهى فى النُتَف) . ووفود [٣] أرسلها ملك الروم سنة ٤٢٦ هـ معها هديّة خطيرة فقبلها بقصره فى صبْرةَ وردّها بما يناسب حالها وحاله. وفى الكامل [٤] أنه أرسل الى جزائر القسطنطينيةّ أسطولا وجهّزَها فرجعت منصورةً غانمةً. الى غير ذلك من الأخبار ولم نتعرّض لها إذ لم يكن الإكثار من غرضنا فى الباب

﴿غُلوّ الفاطميّين فى بَثّ دعوتهم﴾

اعلم أن القاضى أسد بن الفرات فاتح صِقِلّيّة والامام سحنونا لما صنّفا الاسدية والمدوّنة كان المذهب الحنفى بعدُ ناشراً لواءه ومادّاً خباءه على تلك الأرجاء إلا أن خطوته جعلت تتقهقر بعد تصنيفهما الى وراء ونباهته الى انزواء. ثم انّ الفاطميّين بثّوا دعوتهم ونشروا كلمتهم ولم يكتفوا بالجائز حتى جاوزوا الحد وارتكبوا كل فظيعة شنيعة . وأظهروا أن ليس غرضهم الا ردّ الأمر الى أهل البيت والولاء لهم والتفانى فى اصطفائهم الا أنّهم أضمروا مايباينه فجعلوا

(١) العمدة ٢ : ٢٢٨ (٢) ٤٣
(٣) البساط ٤٤ (٤) ٩ : ٢٢٥

يخدعون العوامّ والسُذّج ويستخفّون بالشريعة وأحكامها وعلمائها وكبار رجالها ويسبّون الصحابة جهاراً ولا يخافون لومةَ لائمٍ ولا نَهْيَ ناهٍ ويتصرّفون فى أوامر الشريعة ونواهيها فعلَ عزيز مقتدر ويستَهْتِرون بالمعاصى ويؤذون علماء الدين وخيرة العالمين . ثم أعادوا أعمالهم الشنيعة بمصر والشام وأصرّوا على الآصار والآثام. إلا أن أهل هاتين المملكتين لم يكن عندهما بَلاءٌ ولا غَناء ولا مِراس ولا لقاء فلم يصابوا فتيلةً ولا رُزِئوا شيئاً . ولكن أهل إفريقيّة والمغرب كانوا بعكسهم من النجدة والبأس وقوّة المِراس وشدّة الشكيمة . آنفين من الضيْم والمضيمة . نقل الدباغ [1] فى سبب قتل عروس المؤذن المتعبّد الشهيد أنه كان يؤذن فى مسجد عباس الفقيه صاحب سحنون فشهد عليه بعض المشارقة [2] أنه لم يقل فى أذانه « حيّ على خير العمل » فقطع لسانه [3] وسُمل بين عينيه وطِيف به القيروانَ ثم قتل بالمِرضاخ . وكذلك نقل [4] أيضاً (وأنكر ابن ناجى وجوده فى المعالم) ما وقع فى عهد أبى المعزّ قال انهم بعد فتحهم مصر والشام « بعثوا دُعاتهم الى إفريقيّة يدعون الناس الى مذهبهم الفاسد ويُجبرونهم عليه فلم يُجبهم أحد

(١) معالم الايمان ٣ : ٢ (٢) كان أهل المغرب يدعون الفاطميين بالمشارقه لان عبيد الله الشيعي مؤسس دعوتهم أتاهم من المشرق
(٣) وفى الاصل وحمل كذا ؟ (٤) المعالم ١ : ٢٤

الى ذلك من أهل القيروان وأنه قدم مرةً [1] داعٍ لهم فى أيام باديس بن المنصور وأخذ الناسَ بالعُنف والغِلظة. وانهم ظفروا ببعض رُسل هـذا الداعى فقتلوه اهـ . فهـذا وأمثاله أثار العوام عليهم. وبغّضهم لهم . إذ لم يكونوا كهمَل النعام . ولا بهيمة الأنعام. يسير بها الراعى العُبيدىّ حيث يشاء . ويسومهم خُطة العَسف وسفك الدماء . فانتقموا منهم فى دولة المعزّ وأبيه وأصابوا الثأرَ المُنيمَ بل أسرفوا وما سَدّدوا ولا قاربوا فقتلوهم اشنع قتلة وفتكوا بهم فتكة البَرّاض ولم يُراعوا حدود الله ولا وقفوا دونها فقُتل بعضهم وانجلى آخرون الى صقلّية

﴿ المُعزّ والمشارقة « الفاطميّون » ﴾

لم يكن فى المعزّ من التأليف والملاطفة والمداهنة والمتاركة ما كان فى أسلافه فكان يجمجم بذمّهـم تارة ويصرّح أخرى ويتبرأ منهم. الى العوام وعلماء الدين وكانوا بحيث ذكرنا ينطوون منهم على دِمْنة كامنة ودِخْلةٍ مُزعجة فعدّوا كلّ هذا غنما ووسيلة الى قلع غَرْسهم واستئصال شأفتهم . قال ابن الأثير [2] مامعناه : لما اجتاز موكب المعز بالقيروان سنة ٤٠٧ هـ رأى دهماء الناس مجتمعين فسأل عن سبب اجتماعهم فقالوا للعن أبى بكر وعمر (رض) فأجاب « رضى الله عنهما » . فكأن ترضيته هذه كانت أمراً للعوامّ فضربوهم حيث

(١) وفى الاصل مدة (٢) ٩ : ١٢٢

وجـدوا اه . وقال ابن خلدون [1] ما لفظه : وكان المعزّ منحرفا عن مذاهب الرافضة ومنتحِلا للسُنَّة فأعلن بمذهبه لأوّل ولايته ولعن الرافضة ثم صار الى قتل من وجد منهم . وكبا به فرسُه ذاتَ يوم فنادى مستغيثاً باسم أبى بكر وعمر فسمعته العامّة فثاروا لحينهم بالشيعة وقتلوهم أبرح قتل وقُتل دُعاة الرافضة يومئـذ اه . وقال ابن ناجى [2] ماملخصه : ان المعزّ لـما قدم القيروان بعد موت أبيه واستفتاح ولايته عام ٤٠٧ قتلت العامّةُ الرافضةَ أقبح قتل وحرّقوهم وانتهبوا أموالهم وهدموا ديارهم وقتلوا نساءهم وصبيانَهم وجرحوهم بالأرجل وكانت صَيحةً من الله سلّطها عليهم وخرج الأمر من القيروان الى المهديّة وسائر بلادهم فقتّـلوا حيث وُجدوا الى آخر ماسرده من أنواع القتل والمُثلة . ثم قال ومانقدم من قولنا « خرج الأمر من القيروان الى المهدية وسائر بلادهم » خلاف ما كان يقول شيخنا أبو الفضل البرزالى أن الوقت الذى قام عليهم فيه أهل القيروان قام كل شيخ على من فى بلده كالشيخ مُحْرِز على هل تُونِسَ من غير أن يكون اتفاق منهم على ذلك بل هي كرامة فى حق جميعهم اه يريد ان قتـل أهل كل بلدة من فيها من الشيعة فى آن واحد لم يكن عن تواطُؤ منهم على ذلك سابقٍ بل هو كشف . أقول وهكذا يقول العوام فى ثورة الهند الشهيرة سنة ١٨٥٧ م وما أشدّ وَلَعَ المتأخرين

(١) ٦ ١٥٩ (٢) المعالم ٣ ١٩٢

بالمكاشفات والخوارق ومدّعى المتصوّفة فانّ سلفهم والتاريخ شاهد على ما أقول لم يكونوا كذلك ولا نبذوا الاسباب والعِلل الكونية نَبْذَ هؤلاء الغُواة. ولم يكونوا أقل منهم رعايةً للدين ولا خشيةً لله. وأهل المغرب أولعهم بالطلسمات والعُوَذ والرُقَى والشيوخ الكاذبين الغاصبين هدانا الله وإياهم الى سواء الصراط. وهذه بعض كرامات سردها ابن ناجى[1] فى ترجمة أبي يوسف الدهمانى: إخباره بالمغيبات مراراً ، طيرانه فى الهواء، إقامته مُقْعَداً ، دَوَران البيت، أمره بطرح القمح فى البحر مع أنهم لما فتّشواعنه وجدوه وافياً لم ينقص حَبّةً ، جعل الماء حيتاناً ، جعل الرَمْل ذَهَباً . الى غير ذلك من الهوسات ، والدعاوى الكاذبات . عصم الله عباده عن حبائل هؤلاء الاغمار القائدي المسلمين الى البوار.

ومع هذا كله وصلته من الحاكم الفاطمى فى هذا العام الهدايا الثمينة . كأنه لو اكتفى بما نعل لم يَهِجْ كامن حقد الفاطميين ولم يُثِرْ دواعى الانتقام . والحقّ أن فتوح المعزّ المتوالية وانتصاراته المتواترة نبّطت من عزائم أعدائه وكفّت من غَرْبهم سواء كانوا من داخل البلاد أو خارجها فأخذوا يستعطفونه ويستميلونه ودلفوا له بالتحائف الخطيرة . فكان هذا من إحدى البواعث على انحراف طبعه وغريزته . ونبذه الفكر فى العواقب وراءه ظِهْرِيا كما سيأتى

(١) ٣ : ٢٦٥ — ٢٧٠

قال ابن خلكان [١] وفى سنة تسع [٢] قُطع اسمه (المستنصر) واسم آبائه من الحرمين الشريفين وذُكر اسم المقتدى خليفة بغداد. فكان هذا وأمثاله من الأمور داعياً له على أخذ الثأر منهم والاستبداد. فقطع الدعاء لهم وكان جارياً من أيام المهدىّ عبيدالله بافريقية سنة ٤٣٥ كما قال ابن الاثير ومؤرخو القيروان أوسنة ٤٤٠هـ كما قال ابن خلدون (إلا أن إحدى سنى ابن خلكان أعنى سنة ٤٤٣ لا أجد لها وجهاً) وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من الطرَز والسكّة ودعا للقائم ابن القادر ووافاه خطابه وكتابُ عهدِه صحبةَ داعيته أبى الفضل الدارمىّ الوزير وسيأتى ذكره مع خِلَع سنيّة وجوائز بهيّة وسيف مرصّع وعدّة أعلام. وهذه صورة التولية [٣]:

من عبد الله ووليّه أبى جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين الى الملك الأوحد ثِقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الأنام ناصر دين الله قاهر أعداء الله مؤيّد سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبى تميم المعز ابن باديس بن منصور وَلِىِّ أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين. . الخ

والعجب من تخليط ابن الأثير حيث قال فى موضع آخر [٤] ان

(١) ٢ : ١٠٣ (٢) وفى العبارة ما يوهم بأن يكون وقوع هذا سنة ٤١٩ هـ راجع ابن خلكان (٣) الكامل ٩ : ٢١٧ (٤) الكامل ٩ : ٢٣٥

ذلك جرى سنة ٤٤٠ هـ فانظر فبأىّ قولَيه نأخذ وعلى أيّهما نعوِّل . وان كان هذا الأخير له شاهدٌ فى المعالم (١) ولفظه فى ترجمة محمد بن جعفر الكوفى قاضى صَبْرَةَ « كان فصيحاً لَسِناً سُنّياً مبايناً لأهل البدع شديداً عليهم ولما أمر المعزّ بن باديس بلعنة عبيد الله فى الخطَب وذلك فى يوم عيد الفطر من سنة أربعين وأربعمائة خطب هذا القاضى فقال بعد ذكر ماجرت العادة به فى خُطبة الفطر: اللهم والعن الفَسَقة الكفّار المُرائين الفُجّار أعداء الدين وأنصار الشياطين المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك المتبعين غير سبيلك والمبدّلين لكتابك الخ . فأمر السلطان خطيب جامع القيروان أن يفعل مثل ذلك على المنبر فى الجُمَع فى كل خطبة » اهـ . أقول ولم يصرّح باسم عبيد الله أو خلفائه فليُعْلَمْ

وجملة القول أن الحاكم المتودّد له كان قد توُفّى وخَلَفه المستنصر وكان أبىّ الضيم والهَضْم فتمعّر وجهه وامتضّ وتحرّق وكتب الى المعزّ يُوْعده فأجابه المعز بمثل كتابه وأظهر انكم لم تنالوا ما نلتم من الملك الا بمعونة آبائى . وان كانت جملته هذه لم تُجانب الصوابَ لأن عبيد الله كان أتى من المشرق وكان أنصاره قبائل صِنْهاجة من البربر وهم إخوان المعزّ وعشيرته إلا أنها لم تخرج عن قلب عَقول ولسان شكور ونظر فى عواقب الأمور. والذى زاد ضِغْناً

(١) ٣ · ٢٤٣

على إبائه والطينَ بَلّةً أنه نام نومةَ عَبُّود ولم يجهز العُدّة أو العديد ولا استمالَهم أو استقالَهم. وأما المستنصر فانه استوزر الحسن البازوريّ وكان جاهلاً غُمراً، يحمل من المعزّ بين ضلوعه غِمْراً. وكان المعزّ يخاطب الوزراء الماضين «بعبده» فكتب اليه «صنيعته» فاغتاظ واستاء ودَبَّر له مكايدَ الأسواء وقَوّى عزيمة المستنصر على الايقاع به والزَحْف اليه على ماسيأتى

﴿ضعف قوة المعزّ﴾

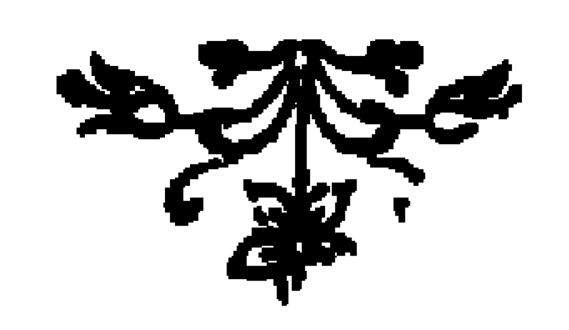
قال النويرى فى نهاية الأرب [1] «سار جماعة من أهل صِقِلية الى المعز بن باديس وأعلموه بما حلّ بهم وقالوا نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلّمنا الجزيرة الى الروم وذلك فى سنة سبع وعشرين وأربعمائة. فوجّه المعز ولده عبد الله الى صقلّية بعسكر عدته ثلاثة آلاف فارس ومثلهم رجال فسار الى الجزيرة ووقعت بينه وبين الاكحل (أحمد صاحب صقلّيّة) حروب وحاصره فى قصره بالخالصة ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الاكحل فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز غدراً. ثم رجع بعض الصقلّيّين عن (كذا) بعض. وندموا على إدخال عبد الله الى الجزيرة واجتمعوا على حربه وقاتلوه فانهزم عسكر عبد الله وقُتل منهم نحو ثلثمائة رجل ورجعوا فى المراكب

(١) مجموعة أمارى فى تواريخ صقلية ص ٤٤٥

الى إفريقية اه . وقال بعد بنحو صفحتين بعد ما ذكر تغلب رجّار الإفرنجيّ صاحب مالطة على عامةّ مدائن صقلية « ففارق الجزيرة كثير من العلماء والصالحين وسار جماعة من أهل صقلية الى المعز بن باديس وذكروا له ما الناسُ فيه بالجزيرة من الخُلْف وغلبة الفرنج على كثير منها فعَمّر أسطولاً كثيراً[١] (كذا ولعله كبيراً) وشحنه بالرجال والعُدَد وكان الزمان شتاء فساروا الى قوصرة فهاج البحر عليهم فَغَرق أكثرهم ولم ينجُ الاّ القليل وكان ذهاب هذا الاسطول مما أضعف المعزّ بن باديس وقَوّى العربَ عليه حتى أخذوا البلاد منه اه » . وإنى لأعجب من ابن الأثير كيف خلط بين الحادثتين قال فى حوادث سنة ٤١٦[٢] أن المعزّ جهّز اسطولا الى صقليةّ لاستنقاذها من أيدى الروم ولكنها غرِقت بما فيها قرب جزيرة قوصرة بعد كيت وذيت . ثم قال بعده بكثير[٣] وأخذ فى بَدْء تاريخ مسلمى صقليةّ تحت حوادث سنة ٤٨٤ ه أن ابن الحواس (أو الجواس) صاحب صقلية لما هزم عساكر ابن الثمنة (الخارج عليه) سار هذا الى رجّار يستنجده ليملكه عليها فسار فى رجب ٤٤٤ بجنوده وقبض على أكثر البلاد وهزم ابن الحواس وسار جماعة من أهل صقلية الى المعزّ بن باديس وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة.

(١) كان فيها اربع مائة مركب على قول ابن الاثير
(٢) الكامل ٩ : ١٤٥ (٣) ١٠ : ٨١

من الخُلف وغلبة الفرنج الى آخر قول ابن فضل الله حتى أخذوا البلاد منه حرفاً حرفاً . وهل هذا إلا تناقض شنيع وتخليط قبيح . ولقد صدق من قال المِكثار مِهْذار. فكان هذا وأمثاله على ما صرّح به العُمَرىُّ وابن الأثير مما أضعف قوى المعزّ وجَرّأ عَرَبَ مصر وشُذّاذ الخوارج عليه وهدم صَرْحَ مجده الرفيع ، وعِزّه المنيع . فصار خرابُ القيروان مُعْدِياً الى سائر إفريقية وصقلية بل إلى المغرب بأسره



﴿ خراب القيروان ﴾

كتب البازورى وزير المستنصر الى المعزّ :

«أما بعد فقد أرسلنا اليكم خيولا فحولا ، وحملنا عليها رجالا كهولا ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا »

ثم رماه بقبائل هلال الذين كانوا مع القرامطة وهم رياح وزغبة والأثبج وغيرهم ووعدهم بالنصر وأعطاهم من العُدّة والأسلحة والمال ما يكفيهم فتقدّموا وجعلوا بَرْقة رجعاً لهم وأخذوا يُخيفون السُبُل والقُرَى، ويُخرّبون الديار ويحرقون الزرع ، ويَعيثون فى الأرض ، ويدمّرون كلّ ما مرّوا به ويقتلون عباد الله . فسرّح اليهم المعز جيوشه فهزموهم . فنهض بثلاثين ألفاً من غلمانه وزُهائهم من قبائل صنهاجة واصطف قريباً من جبل حيدران [١] أو جندران [٢] وظهر منه من الجراءة والإقدام وحبّ الحِمام ما لم يُعهَد مثله. إلاّ أن فَشَلَ صنهاجةَ وتواكُلَهم جلب له عاراً باقياً حيث هزمهم العربُ وهم ثلثة آلاف على ماقال شاعرٌ :

وان ابن باديس لأفضل مالك ولكن لعمرى ما لديه رجال
ثلثون ألفاً منهم غلبتهم ثلث إلاف [٣] ان ذا لَمُحال

(١) ابن خلدون ٦ : ١٥٩ (٢) الكامل ٩ : ٢٣٦

(٣) في الكامل ثلثة ألاف ولعل الصواب ثلثة ألف على خلاف القياس

ثم إنه قوّى عزمَه وخرج ثانياً بسَبْع وعشرين ألف مُقاتل وثبت غلمـانه وقبائل زناتة إلا أن صنهاجة غدروا بهم على عادتهم فانهزم بمن معه . ثم رَخَّص كَرْهاً قبائلَ العرب أن يدخلوا قيروان للبيع والشراء . إلاّ أن هيبته كانت زالت عن قلوبهم فأخـذوا يجوسون خلال الديار ويذيقون العباد والبلاد أهون الدمار . فأشار المعز على ناسه أن ينتقلوا الى المهديّة وكان عليها ولده تميم من سـنة ٤٤٥ ﻫ وخرج هو أيضا بنفسه سنة ٤٤٩ ﻫ الاّ أنهم لما رأوا القيروان خاليـة من الحامية شرعوا فى العَيْث والهَدْم والإحراق على جارى عادتهم . ولمّا رأى الروميون ماحلّ بهم أغاروا على المهـدية . وثار ثُوّار البرابرة أيضاً فصيّروا حواضر إفريقية كعَصْف مأكول . فلَبِث المعزّ فى باقى حَياته وهو أربعة أعوام منزوياً عن زهرة الحياة متشتّتَ البال كئيبَه كشمس كسفَتْ أو عين نَضَبَتْ . وحدث فيه من الحِدّة ما نفّرعنـه دُرَرَ عِقْده فتناثرتْ بعد التئامها وارتحل صاحبنا ابن رشيق ايضاً مع انه كان حِلْسَ البيت وحليفَ وكره الى صقلّيّة وكانت من الاختلال بحيث رأيت ودريت . وذكر ابن‌خلدون[1] فيما نحن فيه كارثةً ترقّ لها القلوب وتذوب وتنهمل العيون بالغروب . وهو أن المعزّ [2] خرج فى خفارة مؤنس أمير رياح من القيروان

(١) ٦ : ١٥٩

(٢) وفى الاصل ابن المعز ولعله خطأ كما يدل عليه كلامه فيما بعد

الى المهدية بعد أن أصهر اليه فى ابنته فأنكحه إياها اه

والجوع يُرْضى الأسودَ بالجِيَفِ

أقول وأذكرتني الاريحيةُ الأدبية أن الحارث بن عُبَادٍ [١] لما هزم مُهَلْهِلاً فى حرب بكر وتغلب لِحَقَ باليمن فنزل فى جَنْب حيٍّ من اليمن فخطب اليه رجل منهم ابنته فقال انى طريد غريب فيكم ومتى أنكحتكم قال الناس اعتسروه · فأكرهوه حتى زوّجها وكان المهر أدَماً فقال :

أنكحها فقدُها الأراقمَ فى جَنْبٍ وكان الحِباء من أدم

لو بأبانَيْنِ جاء يخطُبُها زُمِّلَ ما أنفُ خاطب بدم

ثم مات سنة ٤٥٣ هـ. وخلفه ابنه تميم وكان شاعراً [٢] ومدحه ابن حمديس وغيره من مُفْلِقي الشعراء. وكان داهيةً ، ومن دهائه ما نقله ابن الأثير تحت سنة ٥٠١ هـ أن حَيَّيْ عدىّ ورياح اقتتلا فقُتِل رجل من رياح وتصالحا على اهدار دمه فحضّ تميم رياحاً على أخذ الثأر بأربعة أبيات أولها :

متى كانت دماؤكم تُطَلُّ أما فيكم بثأر مستقِلّ

فتحاربا وتقاتلا وكفاه الله حربهم ونجّاه من شرّهم. ثم تولى

(١) طبقات الشعراء ليون ص ١٦٥

(٢) راجع لشعره الشريشي ١ : ٢٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٨ ، ٢٩١ – ٢ : ٢٨ الى غير ذلك

ابنه يحيى بن تميم ثم عليّ بن يحيى ثم حسن بن علي وعليه ختام هذه العائلة التي حكمت ٢٠١ سنة. ومات يحيى سنة ٥٦٣ هـ . وكل ملوكهم أبناء لأصلاب أسلافهم

سبب خراب القيروان غريب

مهما كان في وسعنا فاننا لم نقصر في البحث عن أسباب خرابها ولم نألُ في التنقيب عن بواعث هزيمة المعزّ . ثم رأينا ابن ناجي[1] شارح المدونة المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ذكر له علةً غريبة أحببنا نقلها قال ما خلاصته :

قلت وسبب خراب القيروان إجابة دعاء الشيخ الواعظ عبد الصمد فانهزم سلطان القيروان مع كثرة عساكره وقلّة من جاءه . وذلك أنه كان له ولد صالح تقيّ واعظ يسمى أبا الحسن محمداً . وكان يجلس بجامع القيروان الأعظم يُسْمِع كلامَهُ . . الى آخر ماوصفه به ثم قال : ومالت له القلوب والاسماع وكثرت له الأتْباع حتى حَذِره السلطان وخاف على نفسه منه فاستعار منه بعض الكتب فأرسل اليه . فطالعه السلطان ثم ردّه فتصفح الواعظ أوراقاً منها فوجدينها

(١) المعالم ٣ ٢٣٦ — ٢٣٨

سجادة بخطّ السلطان (١) كأنه لسيها بين أوراق كتبه فاذا فيها « زعم ملوك الفرس وحكماء السيَر والسياسة أن أهل التنمّس والوعظ وتأليف العامّة أضرّ الناس على الملوك وأقبحهم أثراً فى الدول فيجب أن يُتدارك أمرُهم ويُبادَرَ الى حَسْم الأذَى منهم » فلما قرأ البطاقة تفطّن للحيلة ثم انه أراد الحج وخرج معه خاصّة القيروان وعامتها وأمرله السلطان بالزاد وذلك لِ ٢٢ من رجب الفرد سنة ٤٤١ ه ومعه رجال وُكلوا به أن يَصلوا معه الى مدينة قابس ونهى أن يشيّعه أحد أو يخاطبه وكَتبَ الى عامله بقابس فى تحذير الناس من الدخول عليه وصار السلطان يُعلن بذمّه . . ثم انه لما خرج عنها قتله رجل من الاعراب فى طريقه ذلك

قال جعفر بن شَرَف لما قُتل كثرَ التظنّى من الناس على السلطان أنه دَسّ عليه مَنْ قَتَله . قال وبلغنى أن أباه أُخبر بقتله وهو بجامع عمرو بن العاص بمصر فنعل قدمه فى الحين وهو يلبّى بالحجّ من مكانه ذلك وتبعه خلق عظيم وكان يطوف بالبيت ويتعلّق بأستار الكعبة ويصيح بقوله :

ياربّ المعز ، عليك به ! يارب ، عليك بابن باديس !

(١) كذا يريد بطاقة كما صرح به فيما بعد . ولم أجدها فى المعاجم بمعنى يليق بالمقام

فكانت الهزيمة بالقيروان في اليوم الثاني من حجته ودعائه وذلك كان أصل خراب القيروان فلم يشك أحد في أجابة دعائه فنعوذ بالله من تغير قلوب أوليائه . وهذا أصح من نقل عياض عن محمد بن عبد الصمد اهـ على طوله

واني لاستفتيه وهو مالك عصره « وكيف أُفتى وفي المدينة مالك » أن يجيبني عن هذه الاسئلة : (١) هل كان الاعراب يسمعون أوامر المعز ويطيعونه فكيف يكون مسئولا إذاً ؟ (٢) لِمَ خَصَّه المعزّ من بين الوُعّاظ بالشُبْهة وهذا أيْ تأليف قلوب العامّة شأنُ كلهم (٣) هل ثَمّ قولٌ في المذهب أنّ ظَنّ العوامّ أو نَبْزَهم أحداً يكفي في استيجاب قتله (٤) هل يصلح ويليق بوليّ أن يدعو على سلطان مسلم بالهلاك والدمار بناءً على الشُبهة من دون تحقيق اللّهم إلا أن يتنصل بأنه علم الواقعة بالكشف فعليه إذاً إثباته (٥) هل يَسْمَح عَدْلُ الله أن يأخذ بُرآءَ القيروان بذنب المعزّ فقط مع أنه يقول « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « ولا تزر وازرة وِزرَ أخرى » أوثَمّ قرآنٌ خاصٌّ لأولياء الله يخالف ما بأيدينا (٦) هل جامع عمرو ابن العاص خامسٌ لمواقيت الحجّ الاربعة فان كان ففي أيّ مذهب ؟ (٧) نحن كلّنا نرى كلّ دول أوروبّا الاستعمارية تسير في مستعمراتها هذه السيرة بعينها فهل نحصل على مُجاب الدعوات كالشيخ يخلّصنا

من أيديها الباطشة المُجْحِفة بنا . ولعمرى لو عثرت على قوله بادىء بَدْء لاقتصرتُ عليه ولم أبحث عن أسباب الخراب في مجلّدات ضخام . أللّهم أهد قومى فانهم لا يعلمون

﴿ عاصمة قيروان ﴾

المعروف أن منسوبها قيروانىّ الاّ أن ياقوت ذكر القَيرَوِىّ أيضاً فى معجمه . وفى مجموعة بالاسكوريال فيها نُخبة من شعره «القَرَوى» على التجريد عن الزوائد وجامع القَرَوِيّين بفاس للمنسوبين الى القيروان هذه

هذه البلدة وان كانت إسلامية اختطّها عُقبة بن نافع الفِهْرى المولود فى عهده صلى الله عليه وسلم رحمه الله إلا أنها صارت بمرور الزمان من أمّهات بلاد إفريقية وبَرّزت عليها فى العُمْران والمدنيّة بحيث لم يضاهِها أىّ بلدة كانت من بلادها . فاجتمع فيها من فضلاء العلماء ، وصلحاء الأولياء والفقهاء والاطبّاء والكُتّاب ومُفْلِقى الشعراء والمهندسين والمنجّمين من الوِهاد والنجادِ وانضوَوْا إليها من سائر البلاد ما جعلها مدينة الاسلام بالغرب . ولما أنها كانت واسطة بين المشرق والمغرب عرّج عليها أو خيّم بها كثير من المجتازين والطلبة الراحلين . وأثاروا فى نفوس أهلها غراماً للعلم

كامناً وولَعاً لاكتساب الفضائل ضامناً . فرحلوا وعمروا وطنهم بأنواع المعارف ودبّجوا لها المطارف . قال الدباغ [١] في ترجمة أبي عبد الله ابن سعدون القيروانيّ : انه كان من أهل العلم بالفروع والأصول وكتبَ الحديث بمكة ومصر والقيروان . زاد ابن ناجى أن خروجه من القيروان كان للتجارة فطاف بلاد المغرب والاندلس وأخذ الناس عنه هناك كأهل قرطبة وبَلَنْسِيَةَ والمَرِية وغير ذلك من البلاد اه وأما فقهاء المالكية كأسد بن الفرات [٢] وتلميذه سحنون وابن أبي زيد صاحب الرسالة وابن يونس واللخميّ وابن مُحْرِزِ التونسي وابن بشير فكان اليهم منتهى موالك الغرب والأندلس والمعوّل فى حلّ معضلات المسائل . قال الدباغ [٣] فى ترجمة أبى القاسم عبد الحقّ السيورى وكان من الحفّاظ المعدودين والفقهاء المبرّزين وكان يحفظ المدوّنةَ من صدره زاد ابن ناجى أن فيه بتراً لأنه كما كان يحفظ المدوّنة كان يحفظ دواوين المذهب الحفظ الجيّد وغيرها من أمهات كتب الخلاف حتى انه كان يقول لمن ينقل شيئاً غريباً أين وقع هذا ليس هو فى كتاب كذا ولا فى

(١) المعالم ٣ ٢٤٥

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون مصر سنة ١٣١١ هـ ص ٢٦٧ والديباج

(٣) المعالم ٣ : ٢٢٥

كتاب كذا يعدّ د أكثر الدواوين المستعملة من كتب المذهب والمخالفين والجامعين ، فكان فى ذلك آيةً . وعرّفنى من نثق به عن شيخنا أبى محمد الشبيبى أن الواردين لقراءة العلم بالقيروان من محبتّهم فى المدوّنة أكثروا فى ثمنها فاشتروا ما بالقيروان منها حتى عُدمتْ منها فأتوا الى الشيخ فأملاها عليهم من رأسه . ثم وُجدت نسخة بالقيروان فقابلوا ما أملى عليهم الشيخ بها فوُجدتا سواء اهـ مختصراً

وأما حسن سَمْت علمائها ورغبتهم في البرّ والايثار فانك ترى صفحات المعالم طافحةً بذلك راجع [1] ترجمة أبى على الحسن بن خلدون. وكان بها طبيب طائر الصيت يسمى ابن الجزّار وآخر يدعى ابن أعين وهاك ما نقل فيه صاحب المعالم [2] « وكان أحمد بن عوانة نسخ للفقيه أبى علىّ جزءا من كلام الاشعرى يساوى أربعة دراهم فدفع له أجرة ذلك فلم يقبل ثم ان ابن عوانة ذهب الى تونس فى زيارة المؤدّب محرز فأتى الى القيروان وقد أصابَه رمَد شديد فأنزله أبو على معه فى الدار واستدعى الطبيب ابن أعين يداوى عينيه فداواه حتى بَرأ وكان يُجرى عليه النفقة فلما أراد السفر أعطاه رزمةً فيها جامع ابن وهب يساوى نحو ثلثمائة درهم، وكان يُجرى النفقة على

(٢) ٣ : ١٩٠ ـ ١٩٤
(١) ٣ : ١٩١

جماعة من أهل العلم والطلب الخ . وأما النجوم فانى أكتفى فيه بكلام ابن خلدون [١] والرجل أدرى بما فى بيته « وقد عوّل المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن إسحاق من منجّمى تونس اه »

قال صاحب البساط ان حضرة المعزّ كان يطرأ عليها نحو مائة شاعر كان برأسهم ولىّ نعم ابن رشيق علىّ بن أبى الرجال الكاتب الشيبانى . وهو الذى أهدى اليه كتابه العمدة كما يقول :

ان الذى صاغت يدي وفمي   وجرى لسانى فيه أو قلمى
مما عنيتُ بسبْك خالصه   واخترته من جوهر الكلم
لم أهده الا لتكسوَه   ذكراً يجدِّده على القِدم

الى آخر الستة الأبيات وقد زيّن كتابه بشعره [٢] . وكان ينضاءل له كما يقول [٣] :

إنى لأعجب كيف يحسُن عنده   شعر من الأشعار مع احسانه
ما ذاك إلاّ أنه دُرّ النُهى   يف [٤] التجارْ به على دهقانه

(١) المقدمة ٢٩١

(٢) راجع العمدة ١ ٨٧ ، ١٦٣ (مكرر) ، ٢ : ١١ ، ١٤ ، ١٨ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٧ ، ١٣٤

(٣) العمدة ١ ١٦٣

(٤) كذا ولعل الاصل « يقف » أو « يوفي » [(الزهراء) : الذي فى نسخة خطية عندنا من العمدة مكتوبة سنة ٩٩٣ « يفد » وهو الصواب]

ويُعْلِمنا بهَمْسه أنه لعليّه كالمتنبّيء لعليّه أعنى سيف الدولة .
وكان هذا الفاضل كاتباً للمعزّ خِصيّصاً به مربّياً له. وكان يقترح على ابن رشيق مساجلة الشعراء وهذه الأبيات[1] من هذا الباب ساجل فيها الناشيء صاحب قصيدتين [2] فى وصف الشعر :

الشعر شيء حسن   ليس به من حرج

الى آخر العشرة الأبيات

وكان الولع بقرض الشعر سرى بين الخاصة والعامة كما يدلك عليه حكاية الانموذج هذه [3] قال ابن رشيق جلست في دكان ابي لقمان الصفار وكان يتهم (كذا) في شعره مع جماعةمن الشعراء وابو لقمان والدركادو يلعبان بالشطرنج ونحن نضحك لما يجري بينهما من غريب المهاترة . فقال الدركادو اجز يا ابا لقمان :

حيتان حسك في طنجير بلوائي

فقال ابو لقمان :   ولحم وجهك فى كانون احشائي

فقال له احمد بن ابراهيم الكموني احسنت يا ابا لقمان ، قسيمك خير من قسيمه . فزهي ابو لقمان وقال ادافع في بديع الشعر وهذا شعري في الهتف . اه . ويشبهه حكاية اخرى في الانموذج[4]

(١) العمدة ١ : ٢٣
(٢) العمدة ٢ : ٩١ و٩٣
(٣) البدائع ١ ٧٠   (٤) البدائع ٢ : ٣٩

والآن نسرد عليك اسماء تواريخ قيروان ورجالها :

(١) انموذج الزمان وياتي (٢) معالم الايمان للدباغ وذيله لابن ناج (٣) تاريخ القيروان [١] لابن زيادة الله الطُبنى (٤) تاريخها [٢] لابي محمد بن عفيف (٥) تاريخها [٣] لابن رشيق (٦) طبقات [٤] علماء افريقية (٧) وكتاب عباد افريقية [٤] كلاهما لابي العرب محمد ابن احمد بن تميم (٨) كتاب في اخبار ملوك افريقية والقائمين عليهم [٥] للتاريخي (٩) كتاب مسالك افريقية وممالكها [٦] : تاريخ ضخم لمحمد بن يوسف الوراق القيرواني ، ألفه للحكم المستنصر صاحب الاندلس . واما التى تجمع بين تاريخها وتاريخ غيرها فهى كثيرة

ثم انقضت تلك السنون واهلها فكأنها وكأنهم احلام

واما الآن فليس بالقيروان من السكان غير عشرين الف نفس بعد ان كانت غاصّةً بقطانها ، وهم على ماقيل لم يقلوا عن الف الف (مليون)

(١) المعجب ـ ليدن ص ٢٥٩ (٢) المعجب ص ٢٥٩

(٣) كشف الظنون (٤) كلاهما من الديباج ٢٥٠

(٥) تاريخ علماء الاندلس للضبي العدد ١٢١

(٦) التكملة لابن الابار العدد ١٠٥٠ وص ٣٦٧

فهرس

ليس بأيدينا كتاب خاص بشعرائها وأدبائها فاحببت أن أدل على قطرة من البحر . على أنك تجد هنا جزءاً من الانموذج الذى خلت منه المكاتب العمومية فيما أعلم

عبدالوهاب بن محمد الازدى المعروف بالمثقال . فوات الوفيات ٢ : ٢٤ من الانموذج

ابن المؤدب . ابن خلكان والابارى ٦٥٤ و ٢٣٢ و٢٦٣ من الانموذج

ابو حبيب عبد الرحمن بن احمد . الفوات ١ : ٢٥١ التكملة لابن الابار من الانموذج

ابو لقمان الصفار والدركادو الكمونى . بدائع البدائه ١ : ٧٠ من الانموذج

ابو العباس ابن حديدة . البدائع ١ : ١١٣ و ١٢٠ من الانموذج

محمد بن حبيب التنوخى . البدائع ١ : ٢٣٩ من الانموذج

محمد بن جعفر القزاز صاحب الجامع ـ وسيأتى فى جملة الشيوخ ـ ابن خلكان ومعجم الادباء من الانموذج

عبدالكريم بن ابراهيم النهشلي وسيأتي

أبو اسحق الحصرى صاحب زهر الآداب وسيأتى

ابو الحسن محمد الصرائرى . بساط العقيق ٦٣ من الانموذج

عبدالله بن رشيق اندلسى قيروانى . التكملة لابن الابار العدد ١٢٨١ من الانموذج

عبد العزيز بن أبى سهل الخشنى الضرير ـ وسيأتى فى الشيوخ ـ بغية الوعاة ٣٠٨ من الانموذج

عبد العزيز بن خلوف الجروى } نثار الازهار ٢٠ من الانموذج
محمد بن ابراهيم }

محمد بن أبي سعيد بن شَرَف الجذامي . معجم الأدباء عن ابن رشيق فى ترجمته

محمد بن عبدون السوسى رحلة التيجانى أمارى ٣٧٩ عن ابن رشيق

يعلى بن ابراهيم الاريسى . الأدباء ٦ : ٤٦٩ والبدائع ٢ : ٣٩ عن ابن رشيق

أبو الفضل الدارمى الوزير . البدائع ٢ : ١١٩ المعالم ٣ : ٢٤١ البساط ٥٣ عن ابن رشيق

ابراهيم الماردى القيروانى . البساط ٥٢ عن ابن رشيق

عبد العزيز بن محمد القرشى . « ٥٢ « « «

الطوسى الاعمى الشاعر . الغيث المنسجم ٢ : ٢٢٥ « «

﴿ بعض أدبائها ﴾

على بن أبى الرجال الشيبانى ولىّ النِّعم على ابن رشيق . العمدة

أحمد بن أبى الأسود الأدباء ١ : ٣٧٨

على بن فَضّال القيروانى « ٥ : ٢٨٩

الرقيق القيروانى وهو فاضل جليل « ١ : ٢٨٧

عبد الله بن محمد الازدي العطار. الفوات ١ : ٢٣٥

ابن معدّ القيروانى المعاهد ٢ : ٢٢

عمر الخراط القيروانى « ١ : ١٢١

محمد بن عطية بن حيان الكاتب . البساط ٥٢

أبو العرب الصقلّى أمارى ٦٠٨ وغيره

الحكيم الفيلسوف أبو الصلت أمارى ٦٠٠ وابن أبى أصيبعة وغيرهما

« « أبو الفضل جعفر بن شرف . الصِلة العدد ٢٩٥

الضبى العدد ٦١٠

تميم بن المعز . ابن خلكان

إلى غيرهم وهم كثيرون

﴿ ابن رشيق ﴾

ولادته وأيام تربيته بالمسيلة (المحمدية)

قال ابن بسام فى ذخيرته [١] « بلغني انه وُلد بالمسيلة وتأدّب بها قليلا ثم ارتحل الى القيروان سنة ست واربعمائة » وقال بنفسه[٢] فى آخر انموذجه « صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق مولى من من موالي الأزد . وُلد بالمحمدية سنة ٣٩٠ ﻫ وتأدّب بها يسيراً وقدم الى الحضرة سنة ٤٠٦ ﻫ وامتدح سيّدنا (المعزّ) سنة عشر » اﻫ . قال ابن خلكان وقال غير ابن بسّام وُلد بالمهديّة اﻫ أقول والقول مردود بتصريح ابن رشيق على أن ابن فضل الله نسبه الى المسيلة . وهذه النسبة لا تتأتى إلاَّ بالولادة فان نشأه كان بالقيروان على الاتفاق . وكان أبوه رشيق مملوكاً رومياً كما يفهم من عبارة الانموذج المارّة وعلى ما صرّح نفسه[٣] فى الرد على ابن شَرَف بعد ذكره نسبَ ابن شَرَف هو اسم امرأة نائحة « وأما أنا فنظر الله فى وجهة (كذا) هذا الشيخ إليَّ، وأتمّ به النعمة عليَّ. فما أبغي به أبا، ولا أرضى بمذهبه مذهبا . رضيت به روميا، لادعيا ولا

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٣ وأمارى عن مسالك الابصار ٦٥٠

(٢) معجم الادباء ٣ : ٧٠ (٣) ٣ . ٧٠

بدّعيا » وكان مولًى لأزديّ كما مر ـ وهكذا يعلم من الوفيات وإنباء الرواة[1] والمسالك . إلا أن صاحب البساط ضرب في حديد بارد وأخذ فى الدعاوى وهاك ما قال [2] :

والذي تحقق لدينا بعد الفحص الطويل عن حياة و(كذا) أخبار هذا الفحل أنه لم يثبت بكيفية قطعية أن أصل أبيه مملوك رومىّ كما يزعمه بعض أهل التراجم بدليل أن اسم رشيق هو من الاسماء العربيـة المستعملة بكثرة فى ألقاب العـائلات العربية الأصـل المنتصبة بافريقية فى ذلك الزمان » اه بلفظه

أقول وهذا القول لا يصلح للالتفات إلا أننا نُضيف الى ما مر عدة دلائل

(١) لا تكاد تعثر على أسماء أجداد الذين أسلموا كياقوت بن عبد الله الرومىّ — وهذا بعينه شأن ابن رشيق فان أحداً لم يذ كر جدّه .فان الاسلام يَجُبّ ما قبله

(٢) ليس قولا لبعض أصحاب التراجم بل لجمهورهم

(٣) الرشيق معناه الحسَن القوام وهـذه الصفة تصلح للغلمان

(١) في مجموعة أمارى (٢) ٥٦

لا الاحرار . فان الموالى كانوا يسمّونهم أفلح ورباحا ومَيْسَرة ورشيقاً الى غير ذلك نظراً الى فوائدهم هكذا قال علماء اللغة والاشتقاق ـ وإنى مع كل هذا أزيدك ثلاثة اسماء نقل ياقوت[1] فى ترجمة احمد بن رشيق الاندلسى عن الحميدى أن أباه كان من موالى بني شُهَيْد ـ ورشيق آخر[2] غلام بكجور وآخر[3] خادم الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وهذا اختراع له آخر قال فى البساط[4]:

ومما نتيقنه أن الحسن وُلد بالمحمدية نواحي سنة ٣٨٥ ولا صحةً لمن قال سنة ٣٩٠ وحسبنا شاهد (كذا) ما ذكره ابن رشيق فى أحد تآليفه عند ترجمته لبعض الشعراء الأندلسيين حيث قال : اجتمعت به بالمحمدية سنة ٤٠١ هـ . ولا يعقل أن يكون سنّ ابن رشيق إذ ذاك عشرة أعوام وهو يجالس الادباء المشاهير

أقول وهذه فِرْية بلا مِرْية كما ترى ـ وبحسبك قول ابن رشيق فى نفسه أن مولده سنة ٣٩٠ هـ . ولا أدري لماذا خص السنة

(١) معجمه ١ : ١٢٧ (٢) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانيسي ٣٥
(٣) ابن تغرى بردي ليدن السنة ١٨٥٥ م ـ ٢ : ٣٨ (٤) ٥٦

٣٨٥ هـ للولادة مع أن أحداً لم يقل به فيما أعلم . على أنه لم يسمّ كتاب ابن رشيق وهذا لا يجوز فى مقام الاحتجاج وان كان لنا أن نقول انه يمكن لابن إحدى عشرة سنة أن يجتمع بالادباء وابن رشيق كان آية في الذكاء وغاية فى قوة القريحة فى صِباه كما يدلك عليه قوله فى الحُصْريّ فى الميم من النُتَف

وكان ابوه صائغاً كما فى الكتب السابقة بلا خلاف لاجوهرياً كما قال محمد بن شنب الجزائري صاحب المقالة عليه فى دائرة المعارف الاسلامية بالانكليزية . وعلمه أبوه صناعته مع شيء من العلم إلا أن قريحته الوقادة لم تجد ببليدة المسيلة مجالا فارتحل الى القيروان لتكميل العلوم سنة ٤٠٦ هـ

﴿ شيوخه ﴾

أبو عبد الله محمد بن جعفر القَزّاز القيروانى إمام اللغة بلا منازع صاحب الجامع فى اللغة الذى يقارب تهذيب الأزهرى كما قال ياقوت ترجمه صاحبنا (١) فى أنموذجه فقال « فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين وكان مَهيبا عند الملوك والأمراء وخاصةِ الناس محبوباً عند العامة قليلَ الخوض الاّ فى علم دين أو دنيا يملك لسانه

---

(١) ياقوت ٦ : ٤٦٩ والوفيات ١ : ٥١٥

ملكا شديداً » وزيّن عُمدته أيضاً [1] بنقل اقواله وما جرى له في مجلسه متأدّبا ولم أجده مزيّفا لقول له أو ناقداً عليه ـ ويظهر أن كتب [2] أئمة اللغة والأدب كأبي زيد وأبي حاتم والمبرّد وابن دُريد وصلته بهذا السند « أنشدنا أبو عبدالله محمد بن جعفر النحويّ (القزّاز) عن أبي علي الحسين بن ابراهيم الآمديّ عن ابن دُرَيد عن أبي حاتم السجستاني عن أبي زيد الانصاريّ » وبهذا « أخبرنا القزاز عن الآمديّ المذكور عن عليّ بن سليمان الأخفش عن محمد بن يزيد المبرّد »

وكان يطرح على تلامذته عويصات المسائل يَسْبُرُ غَوْرَهم فمن ذلك ما نقله صاحبنا في عمدته [3] قال وحاجَى شيخنا أبو عبد الله بعض تلاميذه فقال له :

احاجيكَ عبّاد كزينب في الورى ولم تُؤْتَ إِلا من حميم وصاحب

فأجابه التلميذ بأن قال :

سأكتم حتى ما تُحِسّ مدامعي بما أنهلّ منها من دموع سواكب

فكان معكوس قول أبي عبد الله عباد كزينب [في الورى]

---

(١) ١ : ٦٨ ، ١٠٢،٨٥ ، ١٢١ ـ ٢ : ٦٣، ١٥٠، ١٩١ وغيرها
(٢) ١ : ١٢١ ـ ٢ : ١٩١ ، ١٥٠ (٣) ١ : ٢١١ ـ ومعجم الادباء ٦ : ٤٦٩

« سِرُّكَ ذائع» فقال الآخر سأكتم فأجابه على الظاهر إجابة حسنة ومعكوس سأكتم « منك أتيت » فكأنه قابل به قول الشيخ ولم تؤت الا من حميم وصاحب وهذا كله مليح اه فهذا يدلّ علي فضل القزّاز وأنسه بطَلَبته وعلى اصابة التلميذ وما خُصّ به ذلك العهد من نَفاق سِلعة الادب ورواج سوقه . وتوفى سنة ٤١٢ هـ وترجم له ياقوت وابن خلكان

أبو إسحق إبراهيم الحُصْرى صاحب زهر الآداب ذكره فى أنموذجه وقال انه توفى سنة ٤١٣ هـ وقال ابن بسام سنة ٤٥٣ قال ابن خلكان(١) وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتاب الجنان أنه ألف زهر الآداب فى سنة ٤٥٠ وهذا يدل على صحة ماقاله ابن بَسام هـ . أقول وهذا غريبٌ إذ يبعد أن يميت صاحبنا شيخه أو بلديه قبل موته الطبعى بـ ٤١ سنةً ــ وليس لدينا امارة على أنه شيخ لصاحبنا الا قول صاحب البساط وهو مجتهد لايصيب الا قليلا . قال ابن رشيق(٢) وقد كان أخذ فى عمل طبقات الشعراء الخ راجع الحكاية فى الميم من النتف . وهذا يدل علي انه لم يكن شيخا له اذ لا يمكن أن يسيء به الادب وهو استاذ له

(١) ١ : ١٤ ــ (٢) معجم الادباء ١ : ٣٥٩

أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي وقد أكثر [1] من النقل عن كتاب له فى الشعر قال فى باب عمل الشعر [2] « وحدثنى بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية هو أشرفها أرضاً وهواءً قال جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح بُرْج هنالك قد كشف الدنيا فقلت أبا محمد . قال نعم . قلت ماتصنع ههنا قال أُلقّح خاطرى وأجلو ناظرى . قلت فهل نُتج لك شيءٌ . قال ماتَقَرّ به عيني وعينك إن شاء الله تعالى . وأنشدنى شعرا يدخل مَسامَّ القلوب رقّةً . قلت هذا اختيار منك اخترعتَه قال بل برأى الأصمعى » اه ويوجد كثير من شعره فى العمدة [3] وزهر الآداب [4] ونثار الأزهار [5] وغيرها . وقال فى [6] موضع آخر من العمدة وذكر من لم يَهْجُ من الشعراء « وقدكان فى زماننا من انتحل هذا المذهب وهو أبومحمد عبد الكريم بن إبراهيم لم يهجُ أحدا قطّ ومن أناشيده فى كتابه المشهور لغيره من الشعراء :

ولست بهاج فى القِرَى أهلَ منزل ... على زادهم أبكى وأبكى البواكيا

(١) العمدة ١ : ٤٥، ٥٢، ٥٨، ٦٥، ٦٧، ٧٢، ٩٤، ١٢٨، ١٦٥، ١٦٩، ١٨٨- ٢ : ٩٤، ١٩٢، ٢٢٨ وغيرها (٢) ١ : ١٣٨

(٣) ٢ : ٢٢٨ وغيرها (٤) المطبوع في الصلب ١ : ١١٦، ١٣١

(٥) ٨١ (٦) ١ : ٧١

الى آخر الثلثة الأبيات » اه أقول وهذا الشاعر هو منظور ابن سُحيم الحماسيّ . ويبجّل اسمه ويخضع له وربما انتقد عليه [1] شيئاً وهو مصيب فى انتقاده ولكن مع مراعاة جانب الأدب . وذكره [2] فى الأنموذج أيضا قال « ان كُتاب الخراج بالقيروان اجتمعوا فى الديوان يوما فوقعت بينهم جرادة فوضعها بعضهم فى يده وقال : من يصفها ؟ فقال عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي قد علمتم أنى امرؤ مُرَوِّ واست بصاحب بديهة . فبدرهم يعلى بن إبراهيم [3] الأرسي » اه . وذكر له فى العمدة [4] قولا غريبا وهو أن اباالطيب إنما سُمّى متنبئاً لنطنته . واقتدينا صاحب البساط فى عدّة من مشايخه وإن لم نره لغيره . هذا ويجيء ذكر خطإ له فى آخر المقالة

ابو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشنى الضرير المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ذكره فى موضعين من عمدته مرة كناه أبا عبد الله [5] واخرى أبا محمد [6] وهذه ترجمته فى الأنموذج [7] « كان مشهوراً بالنحو واللغة جدّا مفتقَرا اليه فيهما بصيرا بغيرها من العلوم ولم يُر قطّ ضرير أطيب منه نفسا ولا أكثر منه حياء مع دين وعفة

(١) العمدة ١ : ١٦٩ ، ١٨٨ — ٢ : ١٩٢ (٢) البدائع ٢ : ٣٩
(٣) راجع له معجم الادباء فى ترجمة القزاز (٤) ١ : ٤٥ (٥) ١ : ١٢٤
(٦) ١ : ٧٢ (٧) البغية ٣٠٨ والبساط ٥٧

وكان شاعراً مطبوعاً سلك طريق أبي العتاهية فى سهولة الطبع ولطائف (كذا) التركيب ولا غناء لأحد من الشعراء الحذّاق عن العَرْض عليه والجلوس بين يديه مات سنة ست واربعمائة وقد زاد على السبعين »

الشيخ ابو عبد الله [1] محمد بن ابراهيم بن السمين ذكره فى العمدة فى غير ما موضع وكان يعرض عليه مشكلات المسائل فيحلها له

القاضى ابو الفضل [2] جعفر بن أحمد (أو محمد) النحوى ذكره فى موضعين من عمدته على ما أدى اليه نظرى . ويمكن أن يكون له من المشائخ غيرهم أيضا يذكرهم فى العمدة [3] تارة بلفظ الشيوخ واخرى بلفظ بعض الشيوخ

﴿ تلامذته ﴾

من الأسف أنا لم نعثر فى هذا الفصل الاّ على قطرة من عِدٍّ وها كها :

(١) ١ : ١٤٤ ـ ٢ : ٢٣ ولما أن القزاز أيضا أبو عبد الله يمكن أن يكون وقع ثم تداخل فى حوالات الرجلين (٢) ١ : ٥٧ و ١٠٣
(٣) ١٤١:١ وغيرها

ابو محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الُحزَنْمي (كذا) يروى عن ابن رشيق شعره فالله أعلم أيرويه عنه بواسطة أو بدونها فى جزء [١] من شعره الموجود بمكتبة اسكوريال

ابو عبد الله الصفار [٢] (أو ابن الصفّار [٣]) الصقلىّ كان هاجر من صقليّة الى القيروان للاجتماع به ولسماع شعره حين تغلّب عليها الروميّون كما سيمرّ بك حكايته

﴿ شَبابُه وصِيتُه فى الأقطار ﴾

أول حلقة من هذه السلسلة عثرنا عليها ما قال فى أنموذجه [٤] فى ترجمة نفسه :

« وقدم الى الحضرة سنة ٤٠٦ ه وامتدح سيدنا خلّد الله دولته (المعز) سنة عشر بقصيدة أولها :

ذَمّت لعينك أَعيُنَ الغزلان　　قمرٌ [٥] اقرّ لحسنه القمران

(انظرها فى النتف) قال ومن مِدَح القصيدة التى دخل بها فى جملته ونسب الى خدمته فلزم الديوان وأخذ الصلة والُحملان :

(١) أمارى ٦٨٠　(٢) البدائع ٢ ٠ ٣٦　(٣) مسالك الأبصار أمارى ٦٥١　(٤) راجع ترجمته في معجم الأدباء ج ٣ : ٧٠　(٥) أقول كذا في ياقوت والحلل السندسية وأنث ذمّت لأن المراد بالقمر امرأة وذكر ضمير لحسنه حملا على اللفظ ثم أنث ضميره في البيت التالى انظره في النتف

لَدْنُ الرماح لما يَسْقِي أسنتَها   من مُهجة القَيْل أومن ثُغرة البطل

(انظرها فى النتف) »

وقد مرّ أنه لما وصل وفود صاحب مصر بهدايا وخلعة وتلقّاهم المعزّ أنشد ابنُ رشيق همزيَّتَه . فلما انثالت عليه الهدايا وأقبلت الخاصةُ جاوز صيته وطار ذكره الى ماوراء البحر من صقلية والأندلس وجاز حتى تغلغل أسماعَ ملوك الطوائف بالأندلس كما سيأتى . ونقل صاحب البساط عن ابن خلدون فى مقدمته :

« ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شَرَف »

وفى الذخيرة [1] لابن بسّام حكايةً عن أبي عبد الله بن الصفّار الصقليّ قال كنت ساكنا بصقلية وأشعار ابن رشيق تردعليّ فكنت أتمنّى لقاءه حتى قدم الروم علينا فخرجتُ فارًّا بمهجتى تاركا لكل ما ملكت يدى وقلتُ أجتمع بأبى عليّ فبرِقَّةِ شمائله وطيبِ مشاهدته سيذهب عنى بعض ما أجد من الحزَن على مفارقة الأهل والوطن. فجئت القيروان ولم أقدّم شيئاً على الدخول الى منزله . فاستأذنت ودخلت فقام إلىّ وهو ثانى اثنين فأخذ بيدى وجعل يسألنى فأخبرته بأمرى فارتمض. اه

(١) على ماي البدائع ٢ : ٣٦ ومسالك الأبصار أمارى ٦٥١

وكان أهل الأندلس يقدرونه حق قدره كما قيل:

إنما يعرف ذا الفضـــل من الناس ذَوُوه

كما سيأتي من أن عُمدته لمـا وصلهم اختصره نحويّهم الشهير ابو بكر ابن السِراج (ككتاب) وعَدّد فيه جمـلةً من أوهامه. ونرى ابن الأبّار الكاتب البَلنْسيّ يأخذ من قُراضة الذهب له. وناهيك بتقاص شعره المجموع من الأقطار إلى مكتبة إسكوريال دليلاً على نَفاق سِلعته لديهم. ونراهم نسـجوا على منواله واقتفوا مثاله استحساناً له كما فعلوا بملْقى السبيل للمعرّيّ فكلّ ماحاذَوْا به هذا الكتاب وكذا أصلُه لايوجد فى غـير الاسكوريال. وهـذه النسخة التى طبعوه عليها أخذوا صُوَرها من أصل اسكوريال. وهذا حال شعره وقَدْر الناس له حقّ قدره. قال ابن خفاجة[1] فى ديوانه « خرجت يوما بشاطبةَ الى باب السّمارين ابتغاء الفُرجة على خرير ذلك المـاء بتلك الساقية وذلك سنة ٤٨٠ ه واذا بالفقيه أبى عمران ابن أبى تليد رحمه الله قد سبقنى الى ذلك. فألفيته جالسا على دكّان كانت هناك مبنيةٍ لهـذا الشأن فسلّمت عليه وجلست اليه مستأنسا به فجرى أثناء ماتناشدناه قول ابن رشيق:

يامَنْ يَمُرّ ولا تَمرّ   به القلوب من الفَرَقْ

(١) نفح الطيب مصر ٢ : ٢٠٤ ليدن ٢ : ٢١٦ و ٢١٧ والبدائع ٢ : ٤٦

الى آخر الخمسة الأبيات المذكورة فى النُتَف . فقلت وقد أعجب بها جِدًّا وأثنى عليها كثيرا أحسنُ مافى القطعة سياقة الأعداد وإلاَّ فانت تراه قد استرسل فلم يقابل بين الفاظ البيت الأخير والبيت الذى قبله فيُنْزِلَ بإزاء كل واحدة منها مايلائمها . وهل ينزل بازاء قوله واذا نطق قوله شغل الحدق . وكأنه نازعنِي القولُ فى هذا غاية الجهد فقلت بديها :

ومهفهفٍ طاوى الحشا　　خَنِثِ المعاطف والنظر

ملأ العيون بصورة　　تُليتْ محاسنُها سُوَر

فاذا رنا واذا مشى　　واذا شدا واذا سفَر

فضح الغزالة والغَما　　مةَ والحمامة والقمر

فجُنَّ بها استحسانا . وقال ابن ظافر القطعة القافيَّة ليست لابن رشيق بل هى لأبى الحسين على بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة اه ومثله مارواه [1] ابن حمديس قال اجتمعت مع أبى الفضل الكاتب جعفر بن المقترح بَسبْتَةَ فذكر لى بيتى ابن رشيق :

البحر صعب المرام مرٌّ　　لاجعلت حاجتى إليه

(راجعهما فى النتف) ثم قال لى أتقدر على اختصار هذا المعنى قلت نعم أقدر على ذلك وأنشدته (وذكر بيتين) فاستحسن ذلك

---

(١) على مافى المعاهد ٢ : ٢٥

إذ كان على الحال وأقام عنى أياما ثم اجتمعت به فأنشدنى لنفسه فى المعنى (وذكر بيتين) فأنشدته لى فيه (وذكر بيتين وكل الأبيات فى النتف)

وأما طيران صيته ونباهة ذكره بالقيروان فحسبك فيه ماجرى بينه وبين الحُصْرى وقوله فيه بيتين راجعها فى الميم قال « فبلغه البيتان فأمسك عنه واعتذر منه ومات وقد سُدَّ عليه باب الفكرة فيه ولم يصنع شيئاً » اهـ ومثله مانقله الدباغ [1] فى ترجمة القاضى محمد ابن جعفر الكوفىّ قال وجرت عليه مِحنةٌ أعقبها التأخرُ عن قضائهم والزهد فى جوارهم وذلك بسبب أبيات صنعها ابن رشيق :

ياسالكا بين الأسنّة والضُبا [2]   إنى أشَمّ عليك رائحةَ الدم

(انظر البيتين فى النتف) منها هذان البيتان صنعها معرِّضا به فنمت الى السلطان فكانت سبب مِحنته (ثم ذكر مصادرته وفراره الى مصر وتَوَلّى قاض آخر جميعَ ما كان يتولاّه هو) ثم قال وزال القضاء عن بنى الكوفىّ وكانت لهم فى ولايته نيف وسبعون سنة تولاّه أربعة منهم في هذه المدة اهـ. وترى [3] فى الراء بيتين له عارض بهما بعض أصحابه وكان سبقه الى بيتين له فى المعنى

---

(١) المعالم ٣ : ٢٤٤   (٢) للمغاربة يكتبون الظاء ضادًا كما هو معروف من خطهم ، أنظر أنيس القرطاس   (٣) البدائع ١ : ٢٤٠

فلما أنشده ابن رشيق بيتيه قال فضحتني وهذا يدل على أن معاصريه كانوا يُقرّون له بالسبق فى الرِهان وإحراز الخصْل عند الأقران

﴿ ابن رشيق بحضرة المعزّ ﴾

المعزّ وان لم نعثر له على شعر كما نقلنا عن ابن خلكان (١) إلا أنه كان مع ذلك ناقدا بصيرا ومِصْقعا نحريرا ـ والعجب من صاحب المقالة فى دائرة المعارف الإسلامية بالانكايزية حيث زعم ان الذي كان ابن رشيق من شعراء حضرته هو المعز الفاطمي ـ فكأنه لم يفرّق بين المُعِزَّيْن ولم يعرف العِزّ من البِرّ ـ وهذا يتضح من انتقاده على بيتي ابن رشيق الحائيّين وقد مرّا ـ ثم ان نونيّته المارةَ أثبتت لديه أن الرجل كأن له شأنٌ ومنتشِر له ذكرٌ ولما أنشده لاميّته اختصّه لنفسه وجلبه الى ديوانه وحمّه بجوائزه السنية ورَفّه بصلاته الخطيرة على ما مر ، وما ساعده الدولة والإقبال لم يحْوِج شاعرَه إلى غيره . ثم إنّ الدهر قلب له ظهر المِحنّ والايام كما علمت غُدُرٌ وللدهر دُوَلٌ وسيأتيك بيانه . قال (٢) ابن شرف فى أبكار الأفكار له « استدعانى المعز بن باديس يوما واستدعى اباعلي الحسن

(١) ولنطه (٢ . ١٠٥) له شعر قليل لم أقف منه على شيء
(٢) البدائع ١ : ٢٢٦

ابن رشيق الأزدى وكنا شاعرَىْ حضرته وملازمَىْ ديوانه فقال أحبُّ أن تصنعا بين يدىَّ قِطعتين فى صفة المُوز على قافية الغين فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر (راجع قطعتيهما فى الغين من شعرهما) فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال فعملنا ولم يُرِ أحدنا صاحبه ما عمل (وراجعْ قطعتيهما فى الذال من شعرهما) قال ابن شرف فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصد واحدا. ولقد قال من حضر ذلك اليوم ما ندرى مِمّ نتعجب أمن سرعة البديهة أم من غرابة القافية أم من حسن الاتفاق » اه فهذا يدل على ما مَنح شاعريه من الاختصاص وحَضِّهما على المساجلة فى قرْض الشعر ومثله ما نقله[1] ابن بسام « أن ابن رشيق دخل عليه يوما وعنده جماعة من الادباء وفى يده أتْرُجَّةٌ ذات أصابع كأنها واسطة ذهب أو جذوة لهب، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئاً فعمل ابن رشيق :

اترجّةٌ سَبْطة الأطراف ناعمة تلقَى النفوس بحظ غير مبخوس
كأنما بسطت كفًّا لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس

والبيتان كما ترى آيةٌ فى الحسن وهما على البديهة فكيف لو تَروّى فيهما . ثم قال ابن بسام فاستحسن ذلك منه وفضّله على

(١) ابن خلكان ٢ : ١٠٥ والذخيرة ٢ : ٣٩ [illegible]

من حضر من الجماعة الأدباء (كذا) . ومثله ما روى أنه رجع من بعض غزواته منصورا فتقدم ابن رشيق وأنشده :

وكأنما راياته مشهورةً يوم اقتحامه
أيدٍ تشير الى العدو بسلمه أو بانهزامه

وكذا قوله[1] وقد غاب المعزّ عن حضرته وكان العيد ماطراً :

تجهّم العيد وانهلت مدامعه وكنتُ أعهدُمنه البِشْر والضَحِكا
كأنما جاء يطوى الارض من بعَدٍ شوقاً اليك فلما لم يجدك بكى

ولكن لما انتقل المعزّ من سيل أعراب مصر الى المهدية وتبعهُ صاحبنا طاش فكره وفال رأيه فكان يمتعض من أدنى فَلْتة ويَجْبَه على أحقر بادرة ويسيء الظن بصديقه الوفيّ وصاحبه الحفيّ فارتحل الى صقلّيّة وهو كاره مع انها لم تكن أحسن حالاً من إفريقية كما سيمرّ بك

﴿ هو في الخليط ﴾

كان على أعلى درجة من الخلق كما مرّ فى حكاية رحلة الصقلىّ إليه ويذكر لنا فى شعره أنه لا يستحلّ الجفاء بالاخوان ولو على المقارضة

من جفاني فانني غير جافٍ صِلةٌ أو قطيعة فى عفاف

(١) المعاهد ٢ : ١٦ وخزانة الحموى ٢١٤

ويعظ أصدقاءه بأن قطوبى ليس عن سوء الطويّة او دُخلل فاسد فلا يغرّنكم ذلك

أحب أخي وان أعرضت عنه وقلّ على مسامعه كلامى

الثلثة الابيات . وذكر فى الأنموذج [1] حكاية تدلّ على كرم ومروءة وسماحة نفس ودماثة خُلق فى ترجمة الشاعر أبى الحسن محمد الصرائرى قال « رأيته فى سوق ابن هشام بالقيروان ماشيا فى فرْو أحمر عتيق مما يوارى ركبتيه وقلنسوةٍ قديمة وهو يشترى لحما . فتواريتُ عنه إكباراً له وحياءً من رؤيته فى تلك الحال واتّبعتُه الى بيته فلما عرفته ذهبت فأتيته بعيبة كانت لى فيها ثياب لاجملها عليه فاذا هو يُصلِح القدر وعليه ثياب نفيسة وعمة شريفة وفى وسطه احرام دبيقى مرتفع فسلمت عليه متعجبا منه فأنكر حالى فقال مالك فقصصتُ عليه القصة من أوّلها إلى آخرها فأثنى بخير وقال قابلت العامة العَمياءَ بما يشبهها » . وقد مرّ فى ذكر شيوخه أنه يتأدّب معهم دائما ويزين أبواب كتابه بنقل أقوالهم بأسمائهم وإن احتاج أن ينتقد على قول أحد منهم لا يخلّ برعاية الادب . ولا يَنِي يُثنى على ولىّ نِعَمه ابن أبي الرجال الآخذ بُحجزْته من الوهاد الى الجبال

(١) البساط ٦٣

كأنه يرى عنقه خاضعة لأعباء إنعامه وكاهله ينوء بأحمال إكرامه.
والاسف أنى مع طول التنقيب لم أعثر على موادّ تاريخية فهاك ما وجدته من الباب فى شعره مع ذكر القوافى فقط : يلقننا القناعة وينهانا عن الجشَع (التعَبِ) . يحذرنا عن مخالطة العوامّ (الأكفاء والصَموت) يخوّفنا بالموت ويوقن بالبعث والنشور وتراه تُرْعَدُ فرائصه من ذكر يوم الدين والوقوف بين يدى رب العالمين (القضاء وظُلَل). يحوم حول الحقيقة والجوهر ولا يحفل بالظاهر وليس من أهل الجعجعة والدندنة أو الفخفخة والطنطنة (معتمدِ) . يشكو الينا جوده وبذلَه كما قيل :

انا اذا اجتمعت يوماً دراهمنا
ظلّت الى طُرق المعروف تستبِق
لا يألَف الدرهمُ المضروب صُرتَنا
لكن يمرّ عليها وهْو منطلق

(جودى) ــ يلين جانباً عند ذكر الماضين . قال في العمدة [1] وقد ذكر عدّة ابتداءاتِ للشعراء « وقد قلت أنا وإن لم أدخل فى جملة من تقدّم ولا بلغت خُطته »

(١) ١ : ١٥٣

﴿ سعة اطّلاعه وإصابتُه الغَرَضَ وغائر نقده ﴾

هو من سعة الاطلاع وجمع الموادّ اللازمة والوقوف على كتب الشعر والشعراء بمكان لا يُجارَى فيه ، بل روى الدواوين الأدبية برواياتها المختلفة ، قال (١) وذكر بيتاً لضباب بن سُبيع بن عوف الحنظلى : هكذا روايته بالحاء غير معجمة وهو الصحيح وبعضهم يرويه غمّة بالغين معجمة ــ وقال (٢) فى بيتى عمرو بن كلثوم صددت الكأس البيت وماشر البيت : انه اختلسهما وهما لعمرو ذى الطَوْق (ابن أخت جذيمة الأبرش) فاستلحقهما عمرو بن كلثوم فى قصيدته وكان [أبو] عمرو بن العلاء وغيره لايرون ذلك عيباً اه أقول عَزْوهما إلى عمرو ذوى الطوق لم يُنبَّه عليه ابن كيسان ولا التِبْريزىّ ولا الزَوْزنى نعم ذكره أبو العلاء فى رسالة الغفران (٣) والبغدادى (٤) فى الخزانة فى خبر طويل ــ وهما فى كتاب النقائض (٥) معزوين لابن كلثوم فى خبر مختلف عما عندهما ، والله أعلم بصاحبهما إلا أنا ذكرناه لغرابته وأن صاحبنا لم يغفل عنه مع شذوذه . ويذكر فى العمدة من الكتب المأخوذ عنها مالا نكاد نَقْضِى منه العجبَ وسأله

(١) ١ : ٩٤ (٢) ٢ : ٢١٧ (٣) مصر ٦٨ (٤) ٣ : ٤٩٨
(٥) ص ٨٨٦

« أنى لك هذا » ولو كان حيًا يسمع لأجابنا « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » وحسبك شاهداً لما نحن بصدده أن كتاب جمهرة أشعار العرب مع عدم شيوع نُسخه وعدم عثور المتقدمين عليه نرى مكتبة صاحبنا مزهوة به حيث يقول [١] « وقال محمد بن أبى الخطّاب فى كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب » .
ونرى أن تعاصر العلماء ربما يمنع بعضهم عن ذكر اسم صاحبه بخير إلا أن صاحبنا لا يستهجنه قال [٢] « وزعم أبو أسامة فيما رأيته بخطه وقد عاصرته وكان علامة باللغة » وأنموذجه فى شعراء عصره لبس إلا . ونراه يأتى [٣] بأشعار المعرى مع المعاصرة فان المعرى توفى سنة ٤٤٩ هـ فذكر بيتين له من غير صنعة اللزوم فى عمدته

هذا ما كان من أمْر الرواية وأما الدراية فإنه من دقة النظر وغموض الفكر وإصابة المرمى بمحل رفيع . لا يترك قولا نقله إلا ويؤيده أو يزيفه إن كان يحتاج إلى بحث . ويدور مع الحق حيثما دار فتراه انتقد على أساتدته وعلى الأصمعى [٤] والصاحب [٥] ابن عَباد والقاضى الجرجانى [٦] صاحب الوساطة وهو بنفسه يعترف فى محل آخر [٧] بفضل القاضى حيث يقول « وهو أصح مذهباً وأكثر

(١) العمدة ١ : ١٦١ (٢) ٢ ١٠٤ (٣) ٢ ٨٢ (٤) ٢ : ١٩٣
(٥) ٢ ١٩٣ (٦) ٢ : ١٩٥ (٧) ٢ ٢١٥

تحققا من كثير ممن نظر فى هذا الشأن » ونراه [1] يوصى الشعراء وصية طويلة قال فيها بعد ذكر ما أحدثه المتأخرون من المعانى المبتكرة والإبداعات الغريبة وإبداء فضلهم على من تَقَدَّمَهم « هذا على أنى ذممت الى المحدثين أنفسهم فى أماكن من هذا الكتاب وكشفت لهم عَوارَهم ونَعيتُ لهم أشعارهم ليس هذا جهلا بالحقّ ولا ميلا إلى ثَنيات الطُرق ولكن غضًّا من الجاهل المتعاطى والمتحامل الجافى الذى اذا أعطى حقَّه تعاطى فوقه وادَّعى على الناس الحسد وقال أنا ولا أحَدٌ وإلى كم أعيش لكم وأىّ علم بين جنبَىّ لو وجدتُ له مستودَعًا ، فاذا عورض فى شعره بسؤال عن معنى فاسد أو متَّهَم أو طولب بحُجة فى لَحنة أو شاذ أو نوظر فى كلمة من ألفاظ العرب مصحَّفة أو نادرة قال هكذا أعرف وكأنما أعطى جوامعَ الكلم، حاشَ لله ! وأستغفر الله ، بل هو العَىّ الأكبر والموت الأصغر» الى آخر ما نعى به عليهم ونَدّد من تعحرفهم وسنُلِمّ بشىء منه فى الآتى وبحسبك فى لطافة فكره وغَوْرِ سبْره ماقال [2] بعد أن نقل اعتراض الصاحب على بيت المتنبىء فى مرثية والدة سيف الدولة :

رِواق العزّ فوقك مسبطِرٌ ومُلكُ علىّ ابنِك فى كمال

(١) ٢ ١٨٥ (٢) ٢ : ١٢٤

ان لفظة الاسبطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الرقيق ثم قال وأنا أقول ان أشدّ ما هجن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء أنه قرنها بفوقك فجاء عملا تامًا لم يبق فيه الافضاء اه قال العاجز نعم كذا هو «فوقك» فى الوساطة[١] وشرح الواحدى[٢] إلا أن فى شرح العكبرى[٣] موضعه حولك . وفى الشرحيْن قول أبي بكر الشعراني تلميذ المتنبيء أنه غير مسبطرّا وجعل مكانه مستطيلا وان لم يكن بأمثل من صاحبه إلا أن اعتراض ابن رشيق ارتفع بالمرّة واعتراض الصاحب شيئاً قليلا

ونقل في باب أغاليط الشعراء والرواة من العمدة[٤] عن الأصمعى قال : قرأت على أبي مُحرِز خَلَف بن حَيَّان الأحمر شعر جرير فلما بلغت الى قوله :

وليل كإبهام الُحبارَي محبِّبِ … إلىّ هواه غالبٍ لىَ باطلُهْ

رزقنا به الصيدَ الغزيرَ ولم نكن … كمن نبلُه محرومة وحبائلُه

فيالكَ يوماً خيرُه قبل شرّه … تغيّبَ واشيهْ وأقصرَ عاذلُه

قال خلف ويحك ما ينفعه خير يؤول الى شرّ فقلت هكذا اقرأته على أبي عمرو بن العلاء قال صدقتَ وكذا قال جرير وكان قليل

(١) ٧٣ (٢) طبعة بومباى ٨١٠ (٣) ٢ ٢٣ (٤) ٢ : ١٩٢

التنقيح لألفاظه وما كان أبو عمرو ليقرئك الا كما سمع . قلت : فكيف يجب أن يكون ؟ قال : الاجود أن يكون خيره دون شرّه فاروه كذلك وقد كانت الرواة قديماً تصلح أشعار الاوائل . فقلت والله لا أرويه إلا كذا — ثم قال : قلتُ أنا أمّا هذا الاصلاح فمليح الظاهر غير أنه خلاف الظاهر وذلك أن الشاعر أراد أنه كان ليلَه فى وصال ثم فارق حبيبَه نهاراً وذلك هو الشرّ الذي ذكر والراوية جَعَلَه لم يفارِق فغيّر عليه المعنى الا أن تكون الرواية ويوم كإبهام الحباري ـ فحينئذ ـ على أن دون تحتمل ما قصد وتحتمل معنى قَبْل وتكون أيضاً بمعنى بَعْد اه ولا يسلّم قولا ما لم يترجّح عنده بدليل ولا يتلكأ عن نَبْذه ولا يحمله تقدم قائله فى العصر على التقليد الأعمى قال[1] فى باب رُخص الشعر « ويجوز له (للشاعر) التقديم والتأخير كما قال العُجَير السلوليّ :

وماذاك إن كان ابن عمّي ولا أخي ولكن متى ما أملِكِ الضرَّ أنفعُ

برفع العين أراد ولكن أنفع متى ما املكِ الضرّ . ولا أدرى ما الفرق بين هذا وبين :

يا أقرعَ بن حابس يا أقرعُ إنك إن يُصرَعْ أخوك تُصرَعُ

(١) ٢ : ٣١٣

حيث فرّقوا بينهما غير أنا لا نسلم لهم كما سلم من هو أثقب مناحساً وأذكى خاطراً » اه أقول سيبويه [١] يجعل تُصْرَع خبر إن وجواب ان يصْرَع محذوف عنده . والمبرّد يجعل فاء الجواب محذوفاً والأصل عنده فتصرع . وهذا شأن المحققين أن يحوموا حول الدليل كما أنكر ابن قتيبة على سيبويه وهو هو عدة تصحيفات له فى الروايات وبناء مسائلَ من النحو عليها فى مقدمة طبقات الشعراء (ليدن ص ٣٢)

وأرى أن أنقل هنا آراء عدة من الشعراء فى شعر محمد بن هانىء المغربى قال ابن خلكان [٢] فى ترجمته :

ويقال ان أبا العلاء المعرّىّ كان اذا سمع شعر ابن هانىء يقول ما أشبّهه إلا برَحًى تطحن قرونا لاجل القعقعة التى فى ألفاظه ويزعم أنه لاطائل تحت تلك الألفاظ . ولعمرى ما أنصفه فى هذا المقال وما حمله على هذا الا فرط تعصّبه للمتنبىء اه

وقال ابن شَرَفَ [٣] في مقامة الانتقاد :

وأما ابن هانىء محمدٌ الأندلسىّ ولادةً ، القيروانىّ وفادةً وإفادةً ؛ فرعدىّ الكلام ، سَرَدِىُّ النظام . متين المبانى ، غير

(١) انظر الخزانة ٣ : ٣٩٦ والسهيلى ١ : ١٦٠ (٢) ٢ : ٥

(٣) من مجموعة رسائل البلغاء ٢٥١ والاحاطة ٢ : ٢١٣ وجمعنا بين الروايتين

مكين المعانى . يجفو بعطَنها عن الأوهام، حتى تكون كنقطة النّظام . الاّ أنه اذا ظهرت معانيه، فى جزالة مبانيه . رمى عن منجيق، يؤثّر فى النيْق . وله غزل قَفْرىّ، لا عذرىّ . لا يقنع فيه بالطيف، ولا يشفع فيه بغير السيف . اهـ

وهاك ما ارتأى فيه صاحبنا [1] بعد أن ذكر أن للشعراء مذاهب مختلفة فى إيثار اللفظ على المعنى أو عكسه :

وفرقة أصحاب جَلْبة وقعقعة بلا طائِل معنًى إلا القليلَ النادرَ كأبى القاسم ابن هانىء ومن جرى مجراه فإنه يقول أولَ مذهَّبته :

أصاخت فقالت وَقْعُ أجردَ شَيْظَمِ
وشامت فقالت لمْعُ أبيض مِخْذَمِ
وما ذُعرت إلا لجَرْس حُليِّها
ولا رَمَقت إلاّ بُرًى فى مخدَّم

وليس تحت هذا كلّه إلاّ الفساد وخلاف المراد . ما الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليّها فتوهّمته بعد الإصاخة والرمق وقعَ فرس أو لَمْعَ سيف .... وكانت عند أبى القاسم مع طبعه صنعة فاذا أخذ فى الحلاوة والرِقّة وعمل بطبعه وعلى سجيّته

(١) العمدة ١ : ١٨١

أشبه الناسَ ودخل فى جملة الفضلاء . وإذا تكلّف الفخامةَ وسلك طريقَ الصنعة أضرّ بنفسه واتعب سامع شعره . ويقع له من الكلام المصنوعِ والمطبوعِ فى الاحايين أشياء جيدة . ثم ذكر له من كلى[1] القسمين بيتاً بيتاً ثم قال فهذا كلّه جيّد وقد زادفيه على البحترىّ الخ

فأنت تراه فى حكمه غير مائل عن جادّة الإنصاف ، ولا هائم على وجهه فى الشطط والاعتساف ، كآخرين يحملهم الحبّ أو البغض على حرمان المصيب واستحسان المخطىء

﴿ أنموذجٌ من شعره ﴾

كان صاحبنا بحيث مرّ من إبداع المعانى واختراع الأساليب وثقوب الذهن وجودة القريحة ، وليس من الحائمين حول جزالة التراكيب وفخامة المبانى وفصاحة الألفاظ فحسبُ . وسيأتى فى ذكر قُراضة الذهب له أنه يفنّد الشعراء وينعى عليهم سَرِقاتهم . فليس من الممكن ان نرى فى شعره « قعقعةَ ولا طَحْنَ » أو معنى مسروقاً بل نجده وافر النصيب من الإبداعات والابتكارات والمعانى الدقيقة والأفكار اللطيفة والأساليب المتينة والمبانى الرصينة

(١) قال ابن درستويه فى كتاب الكتاب (ص٢١) أن كلا وكلتا يكتبان فى حالة الاضافة الى المظهر والجر أو النصب بالياء فتكتب رأيت كلى الرجلين ومررت بكلى الرجلين

زفرة العاشق

إن كنت تنكر مامنكَ ابتُليتُ به ... فإنّ بُرْءَ سقامى عزّ مطلبُه

أشِرْ بعود من الكبريت نحو فمى ... وانظرْ إلى زفراتى كيف تُلْهبه

علّة الهُزال

وقائلةٍ ما ذا الشّحوب وذا الضنى ... فقلت لها قول المشوق المتيم

هواكِ أتانى وهو ضيف أُعِزّه ... فأطعمته لحمى، واسقيته دمى

طول الليل وصنعة التوجيه

قد طال حتى خلتُه ... من كل ناحية وسط

وتكرّرت [illegible] المنا ... زل منه، لامنى الغلط

يعنى أن الليل من طوله كان كخط الدائرة ليس له بدايةٌ ولا نهاية بل حيثما أخذت منه فهو وسط. وتكررت منازله فهذا الخطأ منه ليس منى أو هذا خطأه لا بل [illegible]

المديح وصنعة [illegible] بالعنعنة

أصحّ وأقوى ما سمعناه فى الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديثَ يرويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كفّ الأمير تميم

وقد أثنوا عليه فى البيتين ثناء لا مزيد عليـه [١] . وانظر فى حسن التعليل ببيتيه (طِيْبا وحبيبا) وكذا قوله فى وصف النارنج وقوله فى قطوب وجهه وسيمرّ بك شىء فى الفصول الآتية . وقال فى الأمثال ، ولقد أجاد وبلغ المراد أو كاد :

فى الناس من لا يرتجى نفعهُ   إلا إذا مُسّ بإضرار

كالعود لا يُطْمع فى طيبه   إلاّ إذا أُحرق بالنـار

وأما بديهته فكم له من فيض اليد وعفو الساعة من غير تروٍّ أو تلبّث ولو فُواق بكيّةٍ . وراجع أمثلتها فى النُتَف لاسيّما إجازته[٢] لبيت ببيت على الدال (ولدُوا وعَدَدُ) بل جُلّ ما عثرنا عليه من شعره فهو من هذا الباب والتقطنا فوائده من كتاب بدائع البدائه .

وأما طوال قصائده فلم تصلنا اللهم الاّ شىء نَزْر كقطرة من بحر

وأما شعره فى الرثاء فان نونيّته في خراب القيروان لا يضاهيها إلاّ نونيَّة صالح بن شريف الرُنْدىّ المذكورة فى القلائد ونفح الطيب وهى معروفة ، وسينيَّة ابن الأبّار [٣] الكاتب البلنْسىّ صاحب التكملة لكتاب الصلة التى أنشدها بحضرة أبى زكريا

(١) راجع المعاهد ١ : ٢١٩ (٢) الشريشى ٢ : ١١٦ (٣) نفح الطيب مصر ٢ : ٥٧٨

ابن أبي حفص صاحب تُونِس مستنجداً لمسلمى أندلس على نَصاراها والتى أولُها :

أدركْ بخيلك خيل الله أندلسا   إن الطريق إلى منجاتها دَرسا

ونونيَّة شمس الدين الواعظ الكوفى [1] فى زوال بغداد ودمارها على يدى العفريت هولاكو خان ومطلعها :

إن لم تقرِّح ادمعى أجفانى   من بعدِ بُعْدِكمُ فما أجفانى !

وكلها حُذيت على مثال نونيَّة صاحبنا [2] فهو أقدمهم عصراً وأنبههم ذكراً وأطيبهم نشراً . فهل من قلب قاسٍ أو طبع جاسٍ يسمعها بسمع فؤاده ولا يرقّ لما حلّ بأهل القيروان مَحَط أهل الدين ومعشَّش الإيمان ولا يستنزِف شؤونه أولا تقطَّع نفسهُ حسراتٍ دونه . فغفرا اللهمَّ !

﴿ صاحبنا فى أرذل العُمُر ﴾

من غريب الاتفاق أن صاحبنا والمعزّ والدولة المعزيَّة وُهبوا فى وقت من بديع السموات والأرض الشيخوخة كما وُهبوا من قبلُ الشباب . وقد رأيناه فى الفصول السابقة يرتع فى جنان النعيم ويهدأ فى ظلال الخفْض والدعة إذ قلب له الدهر ظهر المجنّ فكابد وعثاء

(١) الفوات بولاق ١ : ٢٣٨ (٢) المعالم ١ : ١٥—١٨

السفر وضيق ذات اليد وحُرْفة الأدب وأرذل العمر

فارقتُ شغباً وقد قوّستُ من كبر   وبئست الخلتان الحُزن والكبرُ

ونراه يئنّ تحت حمل الهرم الفادح ، والضعف الخاذل الفاضح . راجع القوافى (للشيْب وبلق الغراب وعن الصواب) . وبيتاه هذان كالنيّرين فى الخافقين :

إذا ما خففتُ لعهد الصبِيَ   أبت ذلك الخمسُ والأربعونا

وما ثَقُلت كِبَراً وطأتي   ولكن أجرّ ورائى السنينا

والمعنى بحيث ترى كروضة أُنُف لم يوطأ قبله بخُفّ ولا حافر ، وكمنهل سائغ لم يُطْرَق بوارد ولا صادر . وقال فى حرفة الأدب :

ما أنت يادهر بالاهوال تفجعنا   إلا كمن يَقْرَع الجُلودَ بالخَزَف

البيتين . وقال :

أشقى لعقلك أن تكون أديبا   أو أن يرى فيك الورى تهذيبا

ما دُمتَ مستوياً ففعلك كله   عَوَجٌ وإن أخطأتَ كنت مصيبا

كالنقش ليس يَصحّ معنى خَتْمه   حتى يكون بناؤه مقلوبا

﴿ عزمة السفَر ﴾

صاحبنا كان حِلْسَ البيت والوطن ، ومرِبّا بالأهل والسَكَن ، لم يفارق العطَن . وهذا أبو الفضل الدارمىّ كان استوطن القيروان

ولكن لم يلبث والحالة هذه مع حاجته وقال :

ومعنّفٍ لى في المقام ضرورةً   بالقيروان وما بها سلطان

الأبيات (١) . وأمّا قِرْنه ابن شرف فإنه قد أفرط في العجلة كراكب عجلان ـ وكأنه لم يكن يؤمن بقولهم : حسن العهد من الإيمان . فإنه هاجر الى صقلية بادىء بدء (٢) ولم يغادر المعز القيروان . وبالجملة فان المعزّ لما فارقها بحكم الضرورة وفارقه المجد والعزّ اللذان كانا رفيقيه طول حياته استقام صاحبنا على منهج الوفاء وحفظ الذِمام فتبعه إلى المهدية . إلا أن هموم المعز كما سبق لنا ذكرها مراراً أنسته استمالة صاحبنا واستعطافه كما قال ابن بسام (٣) بعد أن ذكر انجلاء المعزّ عن القيروان:

« وكان أبو علي ممن انحشر في زمرته المحروبة ، وتحيّز إلى فئته المنكوبة ـ أقام معه وعشى المهدية فما بَعُدَ (كذا) أسطول الروم . فأصبح البحر ثنايا . تطلع المنايا . وإكاما ، تحمل موتاً زُؤاما . فدخل على المعز حين وضح الفجر فوجده فى مصلاه والرِقاع عليه تَرِد ، والشمع بين يديه تتّقد . فقام ينشده قصيدته التي أوّلها :

(١) المعالم ٣ : ٢٤٢ (٢) أعنى سنة ٤٤٧ كما فى الصلة العدد ١٢٠٨ والمعالم ٣ ٢٣٩ (٣) مسالك الابصار : أمارى ص ٦٥١

تَثبّتْ لا يُخامِرْكَ اضطراب ... فقد خضعت لعزتك الرقابِ

فقال مَهْ ! متى [1] عهدتَني لا أتثبت ؟ اذا لم تجئنا إلا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا . ثم أمر بالرُقعة التي كانت فيها القصيدة فمزّقت ولم يقنعه حتى أدناها الى الشمع فأحرقت (كذا)

وأما تعيين عام رحلته إلى صقلية فلم أر من نبه عليه غير ان فى قول ابن بسام المذكور آنفا هذه الجملة « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق وكان وجهته الى صقلية » والأنفة والحمية أيضا كانتا تقضيان بذلك على ماقيل :

ولا يقوم على ضَيْم يراد به ... إلاّ الأذلان عَيْر الحيّ والوَتِد

وكان المتنبيء فارق سيف الدولة على أن ابن خالويه أمرّ مفتاحا فى المنديل ورماه بحضرة سيف الدولة ولم يغضب له ولا احتمى . وإن كانت صقلية لم تكن تصلح للاستيطان بما دَهمها من فتنة طاغية مالطة رَجّار الإفرنجيّ إلا أنهـا كانت أقرب ميناء الى المهدية . وقال صاحب البساط انه هاجر اليها بعد وفاة المعز فى السنة ٤٥٣ هـ

(١) وأما صاحب البساط ص ٥٩ فقال ان ابن رشيق كان يسايه أحيانا عند التكدر بانشاد قصائده المطربة ثم نقل حكاية الذخيرة هذه وحرفها حيث حكى « متى عهدتني ياندي لا أتثبت ؟ » حتى يستدلّ بها على ما اخترعه

لما سمعه من كرم أمرائها الحسنيين ، ولا يبعد أن يكون ارتحل سنة ٤٥٢ هـ . وأما رثاؤه للمعزّ على الكاف فيمكن أن يكون قرضه بصقلية ، ولكنه خلاف الظاهر المتبادر

﴿ صاحبنا الهرم بصقلية ﴾

من سوء الحظ ليس بأيدينا من تاريخه بصقلية مايرشدنا . وأسبابه على ماهو الظاهر (١) أنه لم يعمل هناك عملا يصلح للذكر أصلا أو على ما بلغنا (٢) هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه (٣) ملوكها الحسنيون كانوا يتحاربون فيما بينهم وطلبوا الطاغية الذى كان فتح معظم الجزيرة فى هـذا الأوان كما قال الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق[1] :

« ولما كان في سنة (كذا) اربعمائة وثلاث وخمسين سنة افتتح غرر بلادها وقهر من معه طغاة ولاتها وأجنادها الملكُ المعظم رجار بن تنقريد خيرة ملوك الافرنجيين » .

ولا يبعد أن يكون صاحبنا ضاع فى هذه المناوشة (٤) من يؤرّخه ؟ فإن جميع مسلمى الجزيرة كانوا بها فاجأهم حيارى تراهم سكارى . وأما مسلمو افريقية فإنهم لم يخذلوهم فى نائبة فيما سبق

(١) أماري ص ٢٦

وكانوا فى هـذا الزمان مشغولى البال بما نابهم . الا الشريف الادريسى فانه يرى بيضة الاسلام بالجزيرة قد تفلقت والمسلمون قد نُـكبوا وهو مع ادعاء السيادة والشرف يشمت بنكبتهم شمات أعداء الدين . اللهم إنا نعوذ بك من شماتة الاعداء . وهذا كل ما عثرنا عليه من هـذا الباب . قال ابن بسام فى الذخيرة على ما نقل عنه ابن فضل الله [1] :

« فخرج ابن رشيق يومئذ [يوم أحرق المعزّ قصيدته على ما مرّ] من عنده على غير طريق وكان وجهته الى صقلية . وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد قتله (؟) عليها . وكان قد وقع بينهما بالقيروان ، ما وقع بين الخوارزمىّ وبديع الزمان . فلما اجتمعا يومئذ بصقلية تنمّر بعضهما لبعض ، وتشوّق أعلام البلد لما كان بينهما من ابرام ونقض . فقصد ابنَ رشيق بعضُ اخوانه وقال له : أنتما علما الاحسان ، وشيخا أهل القيروان . وقد أصبحتما بحال جلاء ، وبين الاعداء . والأشبه بكما أن لا تفريا أديمكما ، ولا تطعما الاعداء لحومكما . فقال له ائت ابن شرف . فوجده أجنح للسلم ، وأدنى الى الحلم . برىء اليد من صببه وصعده ، وأعطاه بذلك

(١) آ.ارى ٦٥١

صفقَىْ لسانه ويده . وكان ابن رشيق ربما اعترض وتعرض ، وتحلب وتلمظ . وأما ابن شرف فلم يحلّ ماعقد ، ولا حال عن [ما] عهد

*
* *

قال أصحاب المعجب(١) والمعالم(٢) ونفح الطيب(٣) وغيرهم ان ابن شرف استنهض ابن رشيق [ولعله بصقلية أو افريقية] الى الاندلس فأجابه :

مما يزهدنى فى أرض اندلس سماع معتضد فيها ومعتمد
أسماء مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الاسد

قالوا فقال ابن شرف :

إن تَرْمِكَ الغُربةُ فى معشر قد جُبل الطبع على بغضهم
فدارِهم مادمتَ فى دارهم وأرضهم مادمتَ فى أرضهم

إلا أن الذى تحقق لدىَّ بعد طول البحث أن الاولَيْنِ ليسا لابن رشيق بَتَّةَ والآخرين يمكن أن يكونا له ولكن فى جواب غير البيتين السابقين وعُمدتى على عدّة دلائل :

(١) المعتضد وابنه المعتمد لم يكونا أساآ إليه حتى يستوجبا

(١) ص ٩٠ ليدن (٢) ٣ : ٢٣٩ (٣) مصر ١ : ٩٩ وليدن ١ : ١٣١

الهجو منه، بل كان المعتضد طلبه فلو وصل بحضرته كما كانا يتمنيان ، فما كان يعتذر به عن الهجو إذن ؟

(٢) عزا البيتين ابنُ خلّكان في ترجمة ذى الوزارتين أبي بكر بن عمّار إليه وذكر للهجو خبراً قرينا بالصواب [1]

(٣) ما كان المعتمد جلس بعدُ على كرسىّ الملك ولا تلقّب بالمعتمد فأنه تملك سنة ٤٦١ [2] ومات صاحبنا على قولٍ [3] فى السنة ٤٥٦ ﻫ وابن شرف فى السنة ٤٦٠ ﻫ فهل من الممكن أن يهجوه بعد موته ـ وأنا أستبعد وقوع القصة استبعاداً لا مزيد عليه ـ وما أكثر ما يتبع السامعون فى مثل هذه المواقع الظنون ـ على أن لفظ الانشاد ربما أوهم السامع أن البيت للمنشد فوقع فى وادى تُضُلِّلَ

وأما بيتا ابن شرف فلا أستبعد أن يكونا لعلى بن فضّال (وفضالة سبق قلم) المجاشعى القيروانى المتوفى سنة ٤٧٩ والمترجم له فى معجم الادباء (٥ : ٢٨٩) على ما فى المعاهد [4] ـ ثم يكون بدا له أن يمتحن موهبته فى هذه الصنعة من التجنيس التى امتاز بها

(١) ملخصه، أنه ولاه على كورة مرسية فثار عليها مستبدا بها وكتب الى ولي نعمه كتبا لم يراع فيها جانب الادب ونال المعتمد وأباه فيها ثم ذكرهما ٢ : ٧٠

(٢) الوفيات ٢ : ٢٩ (٣) الوفيات ١ : ١٣٣ (٤) ٢ : ٧٠

أبو الفتح البُستى فيكون قل على ما فى المعاهد أيضاً [1] :

يا ثاويا فى معشر قد اصطلى بنارهم
ان تبك من شَرارهم على يدَىْ شِرارهم
أو ترم من أحجارهم وأنت فى أحجارهم
فما بقيت جارَهم ففى هواهم جارِهم
وأرضهم فى أرضهم ودارهم فى دارهم

أو يكون العزو على العكس أى البيتان يكونان لابن شرف وهذه الابيات لابن فضال الا أنه لا شك أن البيتين الداليين ليسا لصاحبنا مرة

ملوك الطوائف بالاندلس وان كان كل منهم يتسمى بالخلافة وينتمى الى الالقاب السامية الا أنه كان فى عهدهم لعلوم الآداب والاوائل نهضة لم تقدر لتلك البلاد قبله ولا بعده — وهذا أبو الفضل [2] الدارمى لما رأى ما حل بالقيروان ارتحل منها الى سوسة ثم منها الى دانية ثم الى بلنسية ثم الى طليطلة فأكرم مثواه صاحبها المأمون بن ذى النون وأجزل قراه وتوسع له وخدمته وأجرى له ستين مثقالا فى الشهر الواحد ثم وصل باستمرار جرايته بعد وفاته سنة

(١) ٢ : ٧٠ (٢) المعالم ٣ : ٢٤٢

٤٥٥ هـ على حاشيته وتلامذته على ما فى المعالم . وأما ملوك بني العباد فانا نراهم فى تربية المعارف وجلب أهل الفضل من كل صقع سابقى الحلبة وكان المعتمد أفضلهم وأنبههم . ذكر العماد [1] وابن خلكان [2] أن المعتمد أرسل إلى كلّ واحد من أبي العرب الزبيرى الصقلىّ وأبى الحسن الحصْرِى خمس مائة دينار ليفدا اليـه بالاندلس فكتبا اليه على الولاء :

لا تعجبن لرأسى كيف شاب أسى
واعجب لأسودعين [3] كيف لم يشب

البحر للروم لا يجرى السفين به
الا على غرَر ، والبرّ للعرب

***

أمرتني بركوب البحر أقطعه
غيرى لك الخيرُ فاخصصه بذا الداء

ما أنت نوح فتنجيني سفينته
ولا المسيح ـ أنا أمشي على المـاء

ثم لما استولى رجار الافرنجى على صقلية انجلى أبو العرب عنها ووصل بحضرة المعتمد وكان صاحبنا يتردد فى أول أمره فى ركوب

(١) فى الخريدة أمارى ٦٠٨ (٢) ١ : ٣٤٣ (٣) ؟ عينى

البحر والجواز الى الاندلس عادة العرب من قديم كما يظهر من قوله :

البحر صعب المرام مُرٌّ   لا جُعلت حاجتى اليه
أليس ماءً ونحن طين   فما عسى صبرُنا عليه

وقوله «عن مراكبِهِ . البيتين » إلا أنه لما علم رغبة المعتضد فى جلبه عزم على الانضواء اليه ولكن لم يوفق كما قال ابن بسام [1] :

« أخبرنى بعض وزراء اشبيلية قال جهز عباد (المعتضد) بعض التجار الى صقلية وكان ابن رشيق كثيراً ما يسمع بذكر عباد فيرتاح الى جنابه ، ارتياح الكبير الى شبابه . فلما سمع بمقدم ذلك التاجر لزم داره وجعل يتردد اليه ويغشاه ، ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه . والتاجر يعـده ويمنيه ، ويقرّب له ذلك ويدنيه . حتى أسمحت الرياح ، وأمكن فى ميدان البحر المراح وذهب التاجر لطيّته ، وخلى بين ابن رشيق وأمنيته . وأخبر التاجر عباداً بذلك كله يتبجّح له بما هنالك . فتابع عباد فى نكاله ، وأمر باستصفاء ماله . ثم رام ابن رشيق بعد ذلك ركوب البحر فخشن له مَسُّه ، ولم تساعده على ركوبه نفسه . فقال البيتين »

---

(١) مسالك الابصار أمارى ٦٥٣

﴿ وفاته ﴾

قالوا انه توفى ببلدة مازَرَ (Mazzara) التى نسب اليها الامام المازرى[1] صاحب المُعْلِم بفوائد كتاب مسلم . والظاهر أنها آخر بلدة بصقلية خروجا الى أيدى الفجار أصحاب رجّار ، لانها هى ومرساها المسمى مرسى عليّ كانا تجاه المهدية من افريقية فكأن المسلمين تقلصوا من أعماق الجزيرة هناك لينتهزوا فرصة الخروج . قال الشريف الادريسى[2] إن الناس كثيرا ما ينتقلون من إفريقية الى مرسى عليّ، ومنه الى مازر اثنا عشر ميلا

وأما عام وفاته فهو على ما قال ابن خلكان[3] سنة ٤٦٣ هـ وفيه توفى مُسند العراق أبو بكر الخطيب البغدادىّ ثم قال ورأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة بمازر والاول أصح » ثم قال بعد نحو سطر « وقيل انه توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ٤٥٦ هـ » . وفى مختصر إنباء الرواة بأنباء النحاة « مات بمازَرَ فى طِلق (خارج) سنة خمسين وأربعمائة » . فعمره على القول الاول ٧٣ عاماً وعلى الثانى ٦٦ .

(١) أبو عبد الله محمد بن علي المازريّ الفقيه المحدث ترجم له ابن خلكان ١ : ٤٨٦ (٢) نزهة المشتاق أمارى ٤٠ (٣) ١ : ١٣٣

وأما السنة ٤٥٦ المذكورة فى كشف الظنون فأظن أصلها من ابن خلكان

وأما صاحب البساط[1] فهاك تذييله قال أولا أنه توفى سنة ٤٥٦ هـ ثم قال : وقال ابن خلكان سنة ٤٥٣ وهو عام ارتحاله إلى صقلية والأول أصحّ عندنا لأن غالب أصحاب التراجم متفقون على أن ابن رشيق توفى وقد بلغ سنه سبعين وهذا مايؤيد ولادته فى حدود عام ٤٨٥ هـ والله بالحقيقة أعلم اهـ

أقول ولا أرى فى هذا صوابا غير قوله والله بالحقيقة أعلم . فقد علمت ان ابن خلكان لم يختر من الاقوال إلا قول سنة ٤٦٣ هـ و ذاك أيضا فى أسماء الاعداد لا الارقام حتى يتداخله الشك ولا يقال ان سنة البساط ٤٥٣ من غلط المنضّد لان قوله بعد هـذا « وهو عام ارتحاله الى صقلية » يؤيد انه لم يعزُ إلى ابن خلكان إلا عام ٤٥٣. فانه لم يرتحل الى صقلية إلا فى هذه السنة ثم أُخذ ينقب عن شاهد لعام الولادة الذى ذكره أعنى سنة ٤٨٥ هـ كما قال هنا وهو يريد عام ٣٨٥ على ما مرّ شرحه

---

(١) ص ٦٢

﴿ تآليفه ﴾

(١) كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده ـ اسمه عنوانه « ان الجواد عينه فراره » تأليف راوية ناقل وجِهْبذ بصير على الشعر والشعراء . وان كان ابن المعتز وقدامة الكاتب والقاضى الجرجانى وأبو الهلال العسكرى وغيرهم تقدموه الى وضع كتبهم فى هذا الشأن إلا أن استيفاء المباحث وتفريع الابواب والتنويع والنقد والتزييف والجرح والتعديل مع رعاية الانصاف واستيعاب جملة من أدوات الكتاب والشعراء والمواد اللازمة لهم لا يشارك كتاب صاحبنا فيها أى كتاب . ذكره ابن خلدون[1] فى عدة مواضع من مقدمته . قال فى موضع منه بعد ذكر أن قرض الشعر وصنعته لا بد له من النشاط وفراغ الخاطر :

ذكر ذلك ابن رشيق فى كتاب العمدة وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة واعطاه حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله

ثم قال بعده بقليل :

(١) مصر سنة ١٣١١هـ ص ٣٥٤ و٣٧١ و٣٧٢ الى غيرها

وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفىً فى كتاب العمدة لابن رشيق

قال صاحب البساط والعهدة عليه انه صنّفه قبل سنة ٤٢٠ ﻫ أقول وفي العمدة [١] « ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولي اليه (الى المعز) أدام الله عزه عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا ثم سرد أبياتاً منها قوله :

الى الملك المعز أبى تميم　　أمر بمن سواه فلا أعيج

وهذا يقتضى أن يكون صنفه بالمهدية بعد السنة ٤٤٩ ﻫ وهى سنة انجلاء المعز إلى المهدية فيكون أتمّ الانموذج وقراضة الذهب بالمهدية أو صقلية . اللهم إلا أن يكون أضاف هذه العبارة فقط بالمهدية . كما سيمرّ بك ان بعض الناس ادعى عليه أنه سرق من كتاب له عدة أبواب وضمنها العمدة . ودعواه هذه مذكورة فى العمدة فلا محيص إذن من أن يكون ألحقها بعد الاتمام والله تعالى أعلم

واختصره الصِقلىّ [٢] وسماه العُدّة كما فى كشف الظنون .

(١) ١ ـ ١٥٤

(٢) هو ابو عمر عثمان وقد ذكره ياقوت في ترجمته ٥ : ٤١ . وقال صاحب البساط (ص ٨٨) انه العلامة ا ن القطاع [صاحب الافعال استاذ ا ن بري] وأن العدة شرح وليس باختصار

واختصره [١] موفق الدين البغدادىّ أيضا . قال ابن الأبار فى كتاب التكملة [٢] لكتاب الصلة فى ترجمة أبى بكر بن سراج النحوى « محمد بن عبد الملك الشَنْتَرِينىّ يعرف بابن السراج ويكنى أبا بكر ...... وله اختصار فى كتاب العمدة لابن رشيق وتنبيه على أغلاطه فيها ..... توفى بمصر سنة ٥٤٥ هـ » ولا يذهبن عليك أن يكون أمثال هذا النقد يخفض من شأن الكتاب شيئا . بل يدلّ على رغبة العلماء فيه والبحث عن فرائده والحرص على تهذيبه مما يشين حتى لا يبقى نهْزة لكل قانص ولَقًى بين يدى كل لاقط . وهذا حمزة الاصفهانى صنف كتابا فى تصحيف العلماء وعلى بن حمزة البصرى أخذ على المبرد فى كامله وأبى حنيفة فى نباته ويعقوب فى إصلاحه إلى غيرهم . وكذا أبو عبيد البكرى صاحب اللآلى فى شرح أمالىّ القالىّ صنف فى التنبيه [٣] على أغلاطه كتابا مفرزاً

طبع العمدة أولا بتونس سنة ١٢٨٥ هـ الجزء الأول فقط .

(١) الكشف رسم العمدة والفوات ٢ : ٨

(٢) ١ : ١٩١ والعدد ٦٦٠ من طبعة مجريط عاصمة اسبانيا

(٣) هو من نفائس الخزانة التيمورية بالقاهرة . وقد وصف بالمشرق ١٩١ ـ ٢٠٠ سنة ١٩٢٠ م

طبع فى مصر بتمامه سنة ١٣٢٥ هـ وزعموا أنهم عارضوه على ثلاث
سخ . وبالمكتبة الملكية فى مصر منه نسخة جيدة

وبحث ابن رشيق فى آخر كتابه هذا عن عدّة فنون من فنون
لأدب حتى يصير كتابه قائما بنفسه كباب الانساب وما يتعلق بها
باب أيام العرب وباب معرفة ملوك العرب وباب الخيل ومذكوراتها
باب أغاليط الشعراء والرواة (وهذا الباب مستوفىً فى كتاب
صناعتين والوساطة أيضا) وباب منازل القمر وأنواعها وباب
لاماكن والبلدان إلى غير ذلك من أبواب الفنون اللازمة للاديب

وذكر فى العمدة [1] أن بعض الناس عاب عليه السرقةَ عنه
العمدة وهاك لفظه « وقد بلغنى أن بعض من لا يتورّع عن كذب
لا يستحيي من فضيحة زعم أنى أخذت عنه مسائل من هذا
لكتاب ـ ولو سئل عنها الآن ما علمها والامتحان يقطع الدعوى
قال بعض الشعراء :

من تحلّى بغير ما هو فيه   فضح الامتحان ما يدّعيه

وكنت غنيا عن تهجين هذا الكتاب بالاشارة الى من أشرت
ليه أنفاً من ذكره وعزوفا بهمّتى عن الانحطاط الى مساواته ولكن

(١) ٢ : ١٨٦

رأيت السكوت عجزا وتقصيرا . اه

(٢) أنموذج الزمان فى شعراء قيروان ـ هذا الكتاب لم أجد له ذكرا في فهارس خزائن الكتب العمومية ـ الا أن من تقدّمنا قد عثروا عليه وأخذوا منه واقتبسوا من نوره ـ وبشر به فى العمدة [١] ولفظه فى باب التكسب بالشعر والانفة منه « وهذا الباب قد احتذاه الكُتّاب فى زماننا هذا إلا القليل وقوم من شعراء وقتنا أنا أذكرهم فى كتاب غير هذا » وذاع الكتاب وسار مسير الشمس فى الاقطار ورأيت ابن الابار صاحب التكملة وابن منظور صاحب نثار الأزهار والأزدى صاحب البدائع والسيوطى وغيرهم وهم كثيرون يجتنون من أزهاره ويعشون الى أنواره ـ ومن اعوازه وعدم وصول الايدي الى مرادها منه ذكرت فيما مرّ (ص ٣١ ـ ٣٢) فهرسا سردت فيها ما عثرت عليه من تراجم أدباء قيروان مأخوذة من تآليف من عثروا عليه . فكأنى أحييت منه بصنيعى هذا جزءاً فلله الحمد على ذلك . وقد اطلعت بعد وضع ذلك الفهرس على أسماء رجال آخرين من ادباء القيروان ورد ذكرهم فى الأنموذج على مانقل عنه فى الكتب الآتى بيانها :

(١) ١ : ٥/

أبو بكر عتيق بن محمد التيمىّ الوراق . من الأنموذج . الفوات ٢ : ٢٩

بكر بن علىّ الصابوني. من الانموذج . الفوات ٢ : ٨٠

عبد الرحمن بن محمد القرشي . من الانموذج . الغيث المسجّم ١ : ٢٣٠

عبد الله بن رشيق المذكور عن الانموذج . نفح الطيب مصر ٢ : ٢١ أيضاً

عبد العزيز بن خلوف الجروى . نثار الازهار ٢٠

محمد بن ابراهيم . نثار الازهار ٢٠

(٣) قُراضة الذهب فى نقد أشعار العرب . قال فيه [١]ابن خلكان « وهو لطيف الجرم كبير الفائدة » وعثر عليه ابن الابار أيضاً وقد نقل كلاهما عنه أن ابن هانىء توفّى سنة ٣٦٢ ﻫ إلا أن ابن الابّار قدّم قول سنة ٣٦١ ﻫ كما هو فى الاحاطة [٢] لابن الخطيب ـ ذكره أيضا فى العمدة [٣] ولفظه:

« باب المعانى المحدثة ـ ولكنى أُفرِد له [ما شارك فيه المتأخرون المتقدمين من المعانى وما اختص به جماعة دون اخرى]

(١) ١ : ١٢٣ (٢) ٢ : ٢١٤ (٣) ٢ : ١٨٧

كتابا قائما بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون وما شاركهم فيه المتقدمون اهـ » ويوجد منه نسخة فى ٤٦ ورقةً بالمكتبة الملّية فى باريس وعدده فى فهرستها ٣٤١٧ (لا ٣٣١٧ كما زعم صاحب المقالة فى دائرة المعارف الاسلامية بالانكليزية) وهو كمكتوب الى أبى الحسن على بن أبى القاسم اللوانى وأوّله « أما بعد امتع الله اخوانك ببقائك وكفاهم الأسواء فيك وجعلنى من بينهم الفداء لك . اهـ » بحث فيه عن سرقات المتقدمين والمتأخرين من الشعراء

(٤) كتاب الشذوذ فى اللغة ـ جمع فيه شواذّ كل باب ككتاب ليس لابن خالويه . قال صاحب البساط ثم شرحه بنفسه

(٥) ديوان شعره ـ قال ابن خلكان [1] فى ترجمة ابن يعيش شارح المفصّل « وكان الشيخ موفق الدين المذكور كثيراً ما ينشد منسوبا الى أبى على الحسن بن رشيق المقدم ذكره ثم كشفت ديوانه فلم أجد هذه الابيات فيه » (ثم سردها وهى عينية انظرها فى النتف) أقول وكذا نقل ياقوت فى ترجمة ابن رشيق بعض هذه الابيات من فسخ الملح وقال إنى لم أقف على تمامها ـ مع أنها بتمامها مسطورة فى العمدة (٢ : ١٣١) ومنه يعلم أن الديوان ليس فيه جميع شعره والله أعلم . ويوجد بمكتبة اسكوريال مجموعة فيها شىء من

(١) ٢ : ٣٤٣

شعره وشعر مهيار الديلمي وأبي الحسن الصقلي وابن الحكاك المكي تأليف أبي محمد عبد الله بن يحيي بن حمود الحزيمي (كذا) ـ والمجموعة تحت عدد ٤٦٧ في فهرستها جمع درنبورغ ، وذكرها أماري أيضاً في مجموعة تواريخ صقلية (ص ٦٨٠)

(٦) ميزان العمل في تاريخ الدول قال الحاج خليفة انه عدد فيه أيام الملوك فحسب

(٧) شرح موطأ مالك كما في الكشف

(٨) تاريخ قيروان على ما فيه أيضاً

(٩) الروضة الموشية في شعراء المهديه ـ كما في البساط ـ

(١٠) كتاب المساوى في السرقات الشعرية كما فيه أيضا

(١١) مختصر الموطأ على ما في البساط . ولا يبعد أن يكون صاحبه ظن شرح الموطأ مختصراً له

(١٢) أنموذج اللغة

وهذه رسائله في الرد على أهل عصره :

(١٣) رفع الاشكال ودفع المحال

(١٤) ساجور الكلب

(١٥) نجح الطلب

(١٦) قطع الانفاس

(١٧) فسخ المُلَح ونسخ اللمح وقف عليه ياقوت كما مرّ [1]

(١٨) نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية

(١٩) الرسالة المنقوضة [2]

ونقل صاحب البساط عن الصلاح الصفدى قوله « وقفت على هذه المصنفات والرسائل جميعها فوجدتها تدل على تبحره في الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره في النقل »

﴿ الإلمام ببعض أوهامه ﴾

لم يكن من غرضنا ههنا أن ننددّ بسقطاته أو ننعي عليه عثراته إلا أن الانسان وإن بلغ نهاية الكمال فلا بد له من عَيْب يقيه من العَيْن الا من عصمه الله . وقد قالوا اللبيب من عُدّت سقطاته ، ولكل عالم هفوة كما أن لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة . وحسبك أنى لم أجد من هذا الباب فى كتاب العمدة الا ثلاثة وباب التأويل يدافع عنه إن ملنا إليه :

---

(١) هذه الرسائل الخمس (من ١٣ ـ الى ١٧) عن النوات ٢ : ٢٠٤ في ترجمة ابن شرف

(٢) هاتان الرسالتان (١٨ و ١٩) من البساط

(١) فصل المضاف بين المضافين. نقل[١] عن شيخه عبدالكريم في عبارة « هذه أملح وأشرف ما وقع فيه الوصف » ولم ينبه علي غلطه ولا اعتذر عنه . وهـذا أى ايراد المضافين علي مضاف إليه مما لا يجوز ألبتة فى النثر قال سيبويه[٢] « ومما جاء فى الشعر قد فُصل بينه وبين المجرور [وأنشد شواهد ثم قال] وقول الأعشى :

إلا عُلالَةَ أو بدا هة قارحٍ نَهْدِ الجُزارهْ

فهذا قبيح ويجوز فى الشعر على هذا « مررتُ بخيرِ وأفضلِ مَن ثَمَّ » . . . . . وقال الفرزدق :

يا من رأى عارضا اسَرّ به بين ذراعَىْ وجبهة الأسد

ومثله فى المفصل وشرحه لابن يعيش وجمهرة كتب العربية

(٢) الخطأ فى الرواية ـ أبيات سيف الدولة الضادية المشهورة فى وصف قوس قُزَحَ وألوانها له حقًّا كما عزاها اليه الثعالبي فى كتابين له والشريشي[٣] ولفظ الثعالبي في اليتيمة[٤] « أنشدني أبو الحسن محمد بن محمد الافريقى المتيّم لسيف الدولة فى وصف قوس قزح وهو أحسن ما سـمعت فيه على كثرته اه » الا أن صاحبنا عزاها فى عمدته[٥] الى ابن الرومى . وظاهر أن الثعالبى أقدم منه

(١) العمدة ٢ : ٩٤ (٢) طبعة بولاق ١ : ٩٠ ـ ٩٢
(٣) ٢ : ٩ (٤) ١ : ١٩ (٥) ٢ : ١٨٤

عصرا وأقوم بشعر المشارقة ضبطا وذكرا ، فقوله القول إذَنْ

(٣) الخطأ اللغوىّ ـ السيف المَشْرَفى منسوب الى مشارف الشام أو اليمن أو الى مشرف (وفى ضبطه خلاف) قرية باليمن أوقين راجع هــذه الاقوال مفصلة فى معجم ما استعجم ومعجم البلدان فى رسمَىْ مشارف ومشرف ـ الا أن صاحبنا خالف جمهور العلماء وقال فى عمدته[1] « سيف مشرفىّ منسوب الى مشرف وهى قرية باليمن كانت السيوف تعمل بها . وليس قول من قال أنها منسوبة الى مشارف الشام أو مشارف الرِيف بشىء عند العـلماء وإن قاله بعضهم » ولم يبيّن لنا دليله وأما السيوف فكانت تنسب الى الهند للمعادن والى اليمن للعمل والى الشام أيضا كما قال الحماسى :

صفائح بُصْرَى أخلصتها قُيونها ومطّردا من نسج داود مُبْهما

ومعلوم أنهم يردّون الجموع إلى وزان المفرد في النسبة فلم أُدْرِكْ وجه انكاره الا أننى لست الآن بصدد التحقيق اللغوى فتعالَ أيها الناظر فى كتابه حتى أُرِيَكَ أنه لم يبدأْ بنفسه فى الائتمار وجرى على المشهور بالاغترار، حيث أنشدنا فى عمدته[2] أيضا من مطربات أناشيده بيتا :

---

(١) ٢ : ١٨٠ (٢) ١ : ١٠٤

وقد نازعتْ فضل الزمام ابنَ نَكْبَة

هو السيف لا ما أخلصته المشارفُ

فقوله « وليس قول من قال الخ » هـذا القائل هو ابن أخت خالته

رحمه الله رحمة واسعة ، ورزق حفرته شآبيب هامرة هامعة .
انه قريب مجيب



استدراك

– ١ –

تقدم في ص ٦ نقلا عن الوفيات ٢ : ١٠٥ أن للمعز بن باديس شعراً . وقد عثرنا على أن له قصيدة اسمها « النفحات القدسية » ذكر فيها استقلاله عن الفاطميين . منها نسخة في مكتبة الاسكوريال

– ٢ –

أوردتُ (في ص ٤٠ ـ ٤١) خبر أبي محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي من شيوخ ابن رشيق . وأزيد الآن أنه صاحب كتاب « الممتع في علم الشعر وعمله » . وورد له شعر في نثار الازهار ٣٦ و ٨١ وفي زهر الآداب

– ٣ –

زد على ماورد (في ص ٤٣) أن من تلامذة ابن رشيق أبا الحسن ابن عيذون الهذلي اللغوي (معجم الادباء ٥ : ٢٤٦) وقد رآه بمازر واستنشده شعره فانشده

ابن شرف القيرواني

وابنه

أبو الفضل جعفر

ترجمة

ابن شرف

١ ـ ترجم له ابن بَشكوالَ في كتاب « الصلة » ـ صلة تاريخ ابن الفرضي ـ طبعة مجريط في الصفحة ٥٤٥ تحت العدد ١٢٠٨ ، وهذا لفظه :

محمد ابن أبي سعيد ابن شرف الجذامي القيرواني منها يكنى أبا عبد الله . خرج عن القيروان عند اشتداد فتنة العرب عليها سنة ٤٤٧ . وقدم الاندلس وسكن المريّة وغيرها . وكان من جلة الادباء وفحول الشعراء . وله كتب مؤلفة في معنى ذلك كله . وله رواية عن أبي الحسن القابسيّ الفقيه وأبي عمران الفاسي وصحبهما وقد أثنى عليه أبو الوليد الباجيّ ووصفه بالعلم والذكاء . وقد أخبرنا عنه ابنه الاديب أبو الفضل جعفر بن محمد بجميع مجموعات أبيه وكتب بذلك إلينا بخطه رحمه الله هـ

٢ ـ وذكره ابن خلكان عرضا في ترجمة ابن رشيق ولم يترجم له خاصة . وترجم له الكتبي في فواته . وهاك مما زاده على السابق (٢ ـ ٢٠٤ طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) :

كان أعور وله تصانيف منها « ابكار الافكار » وهو كتاب

حسن فى الأدب يشتمل على نظم ونثر من كلامه وتوفى سنة ٤٦٠ هـ.
وكان بينه وبين ابن رشيق مُهاجاة ومعاداة جرَى الزمان بها ، كعاداته بين المتعاصرين . ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجوه فيها ويذكر أغلاطه وقبائحه [سميناها فى ترجمته ص٨٣ ـ ٨٤] ثم سرد له تسع قِطَع ذكرناها فى النتف ـ راجعها فيه ـ

٣ ـ وترجم له صاحب « المعالم » وذيله (٣ : ٢٣٩) وهاك ما زاد على السابقَين : « الاجذابىّ ـ قدم الاندلس . . . وتردد على ملوك الطوائف بها بعد مقارعة أهوال ومباشرة خطوب طوال وله عدّة تواليف منها كتابه الموسوم « بأعلام الكلام » وكتاب « أبكار الافكار » وكان من أعقل الناس وأحزمهم استنهضه ابن رشيق مع منافرة كانت بينهما فى . . . أن يجوزا معا الى الاندلس فأنشده ابن رشيق [مرّت أبياتهما في ترجمته ص ٦٩] ثم ذكر من شعره قطعتين فى رثاء القيروان [متأملِ وغافرُ] وأخرى في الشيب [وشاحُ] وذكره أبو الوليد . . . . وأن علم الأدب من بعض علومه . هـ

أقول ومن جهة كونه فقيهاً ذكره صاحب « المعالم » ولم يذكر ابن رشيق . وذكر ابنَ رشيق ابنُ خلكان دونه من جهة نباهته في الادب

٤ـ وترجم له السيوطي المكثار في بُغيته ص ٤٦ في سطرين اختلسهما مع زيادة غلط فاضح من « الصلة » وهذا لفظه الغريب : مات سنة ثمان عشرة وخمس مائة ذكره ابن بَشْكُوال في زوائده على الصلة ﻫ . والسنة كما ترى من اختراعه ــ والترجمة في صلب طبعة الصلة في فصل الغرباء ــ والله أعلم

٥ ـ وله نثر طويل في مدح الشطرنج (في الغيث ٢ : ٥٦) وهاكه :

حربٌ سجال ، وخيلٌ عِجال ، وفرسان ورجال ، قريبة الآجال ، سريعة عودة المجال . تستغرق الفكرة ، وتستلب اللب استلاب السكرة . وتترك اللسان وما أراد ، أساء أو أجاد . إلا أنها تدني مجلس الصعلوك ، من أشراف الملوك . حتى لا يكون بينهما في أقرب بقعة ، إلا عرض الرقعة ، وربما التقت ثيابهما في بيت القطعة ، ولسانهما على بيت القطعة [١] . لعب أصولي ، وغريب صُولي [٢] . قمرجاجي ، ولعب لجلاجي . مظفر الفئة ، يراها عن مائة . بيوته حصينة ، وشاهه مصونة [٣] . ودوابه مجتمعة ، وشاهه

---

(١) البيت من الشعر ، والقطعة مادون العشرة من الابيات

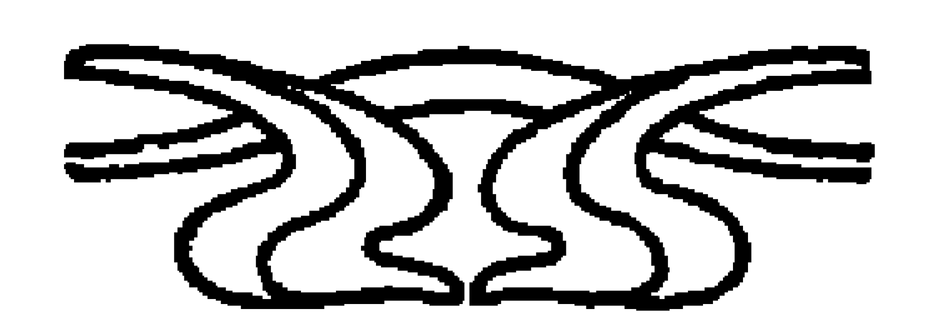
(٢) أبوبكر الصولى الشطرنجي الذي يضرب به المثل في اللعب بالشطرنج

(٣) الشاه اصله بالفارسية الملك ولكنهم أجروا هاءه مجرى هاء التأنيث

ممتنعة . جيد النظر ، شديد الحذر ، لا يبقى ولا يذر . عينه تغلي ، وفكرته تملي ، ويده تبلي

وقال في ضد ذلك :

آخر الطبقة ، وأول الابقه[1] . ألعب كل ، يطرح له الكل . رخه أبداً فيل ، وشاهه قتيل . لعب يرمد ويكمد ، لعب الغريب فيه غريب . والصواب فيه لا يصاب . دفع ما فيه نفع . وقطع على نطع . ما في دفعاتها إغراب ، ولا لوقعاتها إطراب . طويل حد الرقعة ، كثير مس القطعة . على طول إمساك ، وثقل حراك



(١) جمع الآبق : الفار . وفى الاصل « الآبقة » وهو غلط

ترجمة ابنه

أبى الفضل جعفر

ترجم له ابن خاقان في قلائده في تسع صفحات (٢٩٠ ـ ٢٩٩ طبعة باريس) وأفاض في الثناء عليه ونقل شعره المرقّص المطرِب

وترجم له ابن بشكوال فى « الصلِة » ترجمة حسنةً (ص ١٣١ والعدد ٢٩٠)

والضّبىّ فى تاريخه طبعة مجريط فى موضعين (العدد ١٥٥٧ ص ٥٢٠ ـ والعدد ٦١٠ ص ٢٣٩)

واختلس صاحب البغية من الصلة أربعة أسطر (فى ص ٢١٢)،

فهرس

﴿ للابحاث الواردة في الكتاب ﴾

صفحة

ابن رشيق

ابن شرف وابنه جعفر

الحكومة المصرية فى الشام

بقلم

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

وهي المحاضرة التى ألقاها فى نادي المجمع العلمي العربي
يوم ١٠ رجب سنة ١٣٤٣ (٥ فبراير ١٩٢٥)

يطلب من

المكتبة السلفية

وثمنه قرشان صاغا

حياة ابن خلدون

ومُثُل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة ألقاها الاستاذ المحقق

السيد محمد الخضر

في جمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية بالقاهرة

مساء الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣

في ٤٨ صفحة

ثمنه قرشان

ويطلب من المكتبة السلفية ومطبعتها